# ايليا ابو ماضي في الاسكندرية

بقلم جورج ديمتري سليم

* * *

كنت منهمكا في كتابة تتمة مقال عن الشاعر المهجري ايليا ظاهر ابي ماضي ( ١٨٨٩– ١٩٥٧ )، لمجلة « الاديب » الغراء ، عندما وقعت يدي على كتاب ايليا ابو ماضي : حياته وشعره بالاسكندرية، ١٩٠١ – ١٩١١م، مع ملامح من المدينة وصور من المجتمع الشامي في هذه الفترة (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ١٧٦ ص ). فنحيت مقالي جانبا ، واخذت اقرأ الكتاب مؤملا ان اجد فيه جديدا عن الشاعر ، اضيفه الى ما اعرفه عنه . ولكن ، كم كانت دهشتي – حين اتممت الكتاب – من بعض تلك النتائج التي خلص اليها عبدالعليم القباني ، والتي مرجعها – كما سنرى – تفسير غير صحيح لبيت واحد في « ديوان تذكار الماضي ».

كنت اود الا اتناول هذا الكتاب لان مؤلفه شاعر مجيد ، نال جوائز على قصائد نظمها ، ومؤرخ أديب متفرغ للكتابة ، وصاحب مؤلفات اعرف منها : « شعراء الاسكندرية في العصور الاسلامية » (١٩٦٤) و «اشعار قومية » (١٩٦٦) و« مع الشعراء اصحاب الحرف » (١٩٦٧) و«البوصيري» (١٩٦٨) و«بقايا سراب ، شعر » (١٩٦٩) و«محمود بيرم التونسي » (١٩٦٩) و« رواد الشعر السكندري في العصر الحديث » (١٩٧٢) و «فخري ابو السعود » ( ١٩٧٣ ) و « نشأة الصحافة العربية بالاسكندرية » (١٩٧٣).

وكنت اود الا اتناول هذا الكتاب ايضا لان القباني تربطني به روابط وثيقة ، فهو ابن الاسكندرية مثلي حيث ولدت انا من ابوين شاميين لبنانيين ، وعضو في اسرة كلية جامعتي التي تخرجت فيها.

كنت اود الا اتناول هذا الكتاب لهذه الاسباب، ولكنني رايت انه من واجبي – وانا اعرف الكثير الثابت من ابي ماضي الذي مرجعه دراسة نلت بها درجة الدكتوراه في حزيران (يونيو) ١٩٦٩ من جامعة جورجتاون بواشنطن ان اعلق على هذا الكتاب بكلمة فيها ما يرضي الحق ، ويرضي النقد الادبي ، ويرضي الدراسات « الايلياماضية» مدركا ومقدرا في نفس الوقت ، تمام الادراك والتقدير، مدى الجهد الذي بذله عبد العليم القباني في تاليف كتابه.

يبدأ عدد ايلول ( سبتمبر ) ١٩١٦ من مجلة «الفنون» النيويوركية بالصفحة رقم ٢٨٧ وينتهي بالصفحة رقم ٣٨٤ . ولكن بين غلاف العدد وبين الصفحة الاولى رقم ٢٨٧، توجد ١٤ صفحة غير مرقمة ، لو جاز لنا ترقيمها « ابجديا » لكانت ارقامها الاحرف ا الى ن. في هذه الصفحات ، وتحت عنوان « كلمة عن ادباء الفنون الظاهرة نفثات اقلامهم في هذا العدد »، يجد القارىء في صفحة و – ز ، موجزا عن « ايليا ابو ماضي » هذا نصه :

« شاعر قرض الشعر وهو في الرابعة عشرة من سنيه، فاصبح والشعر فيه ملكة والقوافي عبيد له خاضعة يقودها كيف شاء .

ولد في المحيدثة بلبنان سنة ١٨٨٩ ، وهاجر الى مصر سنة ١٩٠٠،ومكث فيها منصبا على المطالعة والدرس لنفسه حتى سنة ١٩١١ ، فغادرها الى اميركا ، وسكن سنسناتي ، ثم جاء نيويوك في صيف هذا العام ليشتغل بالادب .

وله « ديوان ابي ماضي » ، طبع الجزء الاول منه في مصر ، والجزء الثاني سيهيأ للطبع قريبا .»

هذا الموجز ، وهو اقدم موجز لحياة ابي ماضي انتهى الينا حتى الان ، كان مصدره بالتاكيد ابا ماضي نفسه .. فنسيب عريضة ، صاحب مجلة « الفنون » ، ما كان له ان يعرف هذه التواريخ المحددة في حياة ابي ماضي لو لم يمده شاعرنا بها .

فاذا اردنا ، بعد هذا ، ان نحدد ايضا يوم وشهر ولادة ابي ماضي في سنة ١٨٨٩ ، قلنا انه ١٥ ايار (مايو) وذلك بناء على ما جاء بعد تحقيق وتدقيق عن تاريخ ميلاد الشاعر ونشاته ، ص ٦٥١ ، من مقال لجرجي ابراهيم نصر ، في مجلة « المشرق » البيروتية ، عدد تشرين الثاني – كانون الاول ( نوفمبر – ديسمبر )١٩٦٩.

نخلص من هذين المصدرين اذن الى غير ما خلص اليه القباني في كتابه . نخلص الى : (ا) ان ابا ماضي ولد في ١٥–٥–١٨٨٩ ، (ب) وانه كان اما في الحادية عشرة او الثانية عشرة – نقول هذا لاننا لا نعرف شهر هجرته – عندما هاجر الى الاسكندرية ، عام ١٩٠٠ ، بصحبة عمه « نعوم »، (ج) وانه كان قد اتم الثانية والعشرين عندما هاجر من مصر الى اميركا في نهاية ١٩١١ ، مارا بلبنان .

يقول القباني في كتابه ، ص ٢٩ – ٣٠ ، ما نصه: « اذا نحن قرانا قصيدة الشاعر « مصر والشام »، واستمعنا منها الى هذا البيت الذي يقول فيه :

مضى عام علي بارض «مصر» وذا عام وسوف يجيء عام

عرفنا انه نظم هذه القصيدة بعد ان اقام بالاسكندرية سنة ، ودخل في الاخرى ، وراح يرقب الثالثة وبعبارة محددة نظمها سنة ١٩٠٢ ... هذه نتيجة لا يجهد الفكر في الوصول اليها . ولكن الذي يحتاج الى شيء من التعمق هو القصيدة نفسها .»

وليت القباني اعطى هذه القصيدة التعمق كله، لا شيئا منه فقط ، لانه لو كان فعل لوضح له آنئذ أن تاريخ

نظم ابي ماضي لـ « مصر والشام » ليس عام ١٩٠٢ كما حدده هو، بل عام ١٩٠٩ . وان شئنا ان تكون اكثر تحديدا — بناء على ما لدينا من الادلة — قلنا بعد ٢٥ آذار (مارس) من ذلك العام .

سيسالني سائل : ومن اين لك بالادلة ؟ ساجيب: من القصيدة نفسها ، شرط ان نقراها بنصها الكامل، ص ٧٥ — ٧٧ ، في «ديوان تذكار الماضي » (ط ١٩١١ ) ، لا في كتاب القباني ، ص ٣٢ — ٣٣ ، لان القباني لم ينقلها هنا بكل معانيها وافكارها وصياغتها كما ذكر، . لنقرا معا هذا البيت المغفل في نص القباني ، وقد وضعت بين قوسين ما يهمنا فيه :

أ ( قانونا ) ليودهم تسنى؟   اذا قد اتت الرجل اللئام

الا يشير هذا البيت الى « قانون المطبوعات الصادر في ٢٦—١١—١٨٨١ » الذي احياه مجلس النظار (الوزراء) بقرار اصدره في ٢٥—٣—١٩٠٩ ، ونشره في « الوقائع المصرية »، ص١ ، عدد ٢٧—٣—١٩٠٩ ، حتى يحد من حرية الجرائد ؟ ثم لنقرا هذا البيت المثبت في نص القباني:

الى م تمنع الدستور « مصر »   وقد كانت تلوذ به ( سيام )؟

الا يشير هذا البيت الى المعاهدة التي عقدت في مدينة «بانكوك» بين «سيام» ( «تايلاند» الان ) وبريطانيا، في ١٠—٣—١٩٠٩ ، والتي بمقتضاها اصبح البريطانيون المقيمون في سيام خاضعين لسلطة محاكم سيام الوطنية؛ وكانوا قبلها — بسبب الامتيازات الخاصة — خاضعين لسلطة محاكم غير سيامية ؟ ثم لنقرا الابيات الاتية المختارة من القصيدة ، وعلى راسها مطلعها ( لاحظ ان البيتين الثاني والخامس ساقطان من نص القباني ):

اطال الليل ام طال المقام؟   ام ( المحزون ) خامره الهيام
فبات يصعد الزفرات وجدا   واما ( ناح ) اسعده ( الحمام)
تجمعت ( الهموم ) عليه تترى   كما اجتمعت على الماء السوام
واعوزه على ( البلوى ) معين   واعوز ليله ( القمر التمام)
كان نجومه اجفان (بال)   كان الليل صب مستهام

الا تشير هذه الابيات الى حالة ايليا النفسية التي صار اليها عام ١٩٠٩ بعد وفاة شقيقه طانيوس ، «البدر الآفل » في الربع الاول من ذلك العام ، عام اصاب القباني في تحديده ص ٢٣؟ الا تقطع الادلة السابقة مجتمعة بان « مصر والشام » نظمت ١٩٠٩ ، ولم تنظم ١٩٠٢ ؟

سيسالني السائل : اتريد ان تقول ان ابا ماضي كان متغيبا عن مصر فترة من الزمن عام ١٩٠٨ ؟ ساجيب: تماما . فهذا ما استطيع ان اثبته لك ، وبسهولة ، من « ديوان تذكار الماضي » ايضا ، وان انا عجزت — في ذات الوقت — ان احدد لك بالضبط تاريخ هذا التغيب ومدته وكذلك سببه . افتح الديوان ص ٤٣ ، واقرا معي في باب « الغزل والنسيب »، هذه الابيات المتتابعة من قصيدة « لقاء وفراق »:

اصبو اليها واصبو كلما ذكرت   عندي اشتياقا الى «مصر» واهليها
ارض سماء سواها دونها شرفا   فلا سماء ولا ارض تحاكيها
رقت حواشيها واخضر جانبها   واجمل الارض ما رقت حواشيها
كان اهرامها الاطواد باذخة   هذي الى جنبها الاخرى تساميا
و « نيلها » العذب ما احلى مناظره   والشمس تكسوه تبرا في تواديها

الا تدل هذه الابيات على حنين ابي ماضي الى مصر، وتحرقه شوقا اليها ، يوم كان بعيدا عنها عام ١٩٠٨ ؟

كان اذن ابو ماضي في آخر العشرين من عمره ، او اول الحادية والعشرين ، عندما نظم « مصر والشام » ، ولكنه كان في آخر الخامسة عشرة حينما دارت « معركة شمولبو » في ٩—٢—١٩٠٤ ، وكان في السادسة عشرة عند « سقوط بورت ارثور » فاتحة ١٩٠٥ ، وكان في بداية السابعة عشرة لما توفي الشيخ محمد عبده في ١١—٧—١٩٠٥ فهل كان ابو ماضي قادرا ، في هذه السن المبكرة ، ان ينظم ما نظمه في هذه المناسبات الثلاث ؟ ام ان قصائده التي نقراها في « تذكار الماضي » لهذه المناسبات ليست القصائد الاصلية نفسها التي نظمها في حينها ، بل القصائد الاصلية بعد ان تناولها ابو ماضي بالتنقيح ، وربما ايضا بالتطويل ، قبل نشرها في ديوانه في منتصف عام ١٩١١؟

اقول هذا لانني لاحظت اثناء دراستي لشعر ابي ماضي في اطواره المختلفة ، ان هناك اختلافا في رواية بعض القصائد ، اختلافا في الشكل او في المضمون . اما في الشكل ، فقد لاحظت اختلافا في رسم بعض الكلمات، وفي ترتيبها ( تقديم وتأخير)، وفي التشطير وعدمه، وكذلك في تجزيء القصيدة . اما في المضمون — وهو ما يهمنا هنا — فقد لاحظت اختلافا في الالفاظ، وفي الابيات، وفي طول القصيدة ، وكذلك في عنوانها .

خذ ، مثلا ، قصيدة « صاحب القلم » (لكن مصرا) التي ارسلها لشاعر من الولايات المتحدة ، عام ١٩١٣ ، الى مجلة « الزهور » القاهرية ، يحيي بها مصر ويحن الى وادي النيل . انها ٣١ بيتا في المجلة ، بينما هي بزيادة عشرة ابيات في « ديوان ايليا ابو ماضي ، الجزء الثاني » (ط ١٩١٩ ).

وخذ « الغميان » (نحن). انها ١٦ بيتا في «مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١»، ولكنها ضعف هذا في الجداول (ط ١٩٢٧ ). وخذ « نار القرى ». انها ١٨ بيتا في « السائح الممتاز لسنة ١٩٢٧ » ، ولكنها ٢٤ بيتا في « الجداول ». ثم خذ « الزمان »، وقارن نصها كما ورد في « الجداول » بنصها في مجلة «المقتطف» القاهرية عدد ١—٧—١٩٢٤ ، وقارن كذلك نص « يارفاقي » في ديوان « تبر وتراب » بنصها في جريدة « النصر الجديد » الدمشقية عدد ٢٢—١٢—١٩٥٢ .

وربما ما حدث بهذه القصائد ، التي سقناها هنا على سبيل المثال ، هو ما حدث ايضا بالقصائد الثلاث التي نحن بصددها — وربما ايضا ببعض شعر صبا ابي ماضي الاخر المنشور في « تذكار الماضي» — فحدا هذا الامر بالقباني الى ان « يستكثر » (ص٣٥) على ابي ماضي «ان يتسع افقه في السياسة الخارجية الى الحد الذي ينظم في احداثها شعرا عربيا سليما ، فيه جودة وشمول وعمق،

وان لم تصل درجته بطبيعة الحال الى حيث بلغ الشاعر فيما بعد . »

على اننا لا نريد ان نخلص ، مما ذكرناه اعلاه ، الى تاكيد ما قاله القباني ( ص ٤٣ـ٤٤) : « ان من المستحيل على صبي.... حتى في السادسة عشرة ان يقول مثل هذا الكلام ، وان يفكر مثل هذا التفكير ، ثم ـ وذلك هو الاشق والاصعب ـ ان ينظم هذا كله شعرا عربيا صحيحا لا يعيبه من رعونة الطفولة وقلة التحصيل شيء .» ذلك لان مثل هذا التاكيد انما يترتب عليه انكار ان هناك نموا ادبيا مبكرا ، ونموا فكريا مبكرا ، ثبت وجوده لدى بعض الادباء.

خذ، مثلا، الشاعر المصري احمد محرم ( ١٨٧٧ ـ ١٩٤٥ ) الذي تشبه حياته كثيرا حياة ابي ماضي في معالمها الرئيسية . يقول عنه بدوي طبانة ، ص١٨ـ٢١ في كتاب « خمسة من شعراء الوطنية » ( الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣) ما نصه :

« ان القراءة الدائبة وحدها كانت السبيل الى تلك الثقافة اللغوية والادبية والتاريخية التي نمت استعداده الفطري لصناعة الشعر ، وبلوغه فيه تلك المنزلة الرفيعة التي لا يشك احد في بلوغه اياها ».

ولا نشك كذلك في اصالة احمد محرم ، وانه خلق شاعرا مطبوعا وعبقريا موهوبا ، وان ملكته الفنية جادت مبكرة بمكنونها ، وهو لا يزال غض الصبا وفي ميعة الشباب . وقد شهد له بذلك النبوغ المبكر بعض الذين قراوا بواكير انتاجه ، وعاصروا مرحلة حداثته ، ومنهم الشاعر احمد الكاشف الذي كتب في العقد الاول من هذا القرن عن احمد محرم يقول « لقد اصبح ذكر هذا الشاب الجليل احمد افندي محرم متداولا على السن الادباء ، محبوبا لديهم ، لما اشتهر به من علو الهمة ، وبعد النظر في كتابته التي تعطرت بها الصحف ، وضربت بجودتها ومتانتها الامثال ، فما زرت اديبا في العاصمة او غيرها من المدن العظيمة الا استشهد لي باشعاره اذا دار بيني وبينه حديث قديم وجديث ، ولقد يعرفه معظم ارباب الصحف ويقدرونه حق قدره ، ويظنونه في الاربعين من عمره ، وانه من سلالة عربية ، وانه من متخرجي الازهر او دار العلوم ، مع انه من ابوين تركيين ، وعمره لا يتجاوز ثمانية عشر ربيعا » .

ويتابع طبانة كلامه فيقول : « وقد اجتمعت في احمد محرم طبيعتان كان لهما ابعد الاثر في توجيه حياته الفنية ، وطبع سلوكه في حياته العامة بطابع خاص متميز ، وهما : الشاعرية التي وهبها ، والاستعداد الفطري للمشاركة في الحياة العامة .

وكانت الشاعرية التي وهبها ، وبرزت معالمها ، واضحة منذ كان حدثا صغيرا يستقبل الحياة ، ولزمته حتى صار شيخا كبيرا يستعد لتوديع تلك الحياة ، هي التي دفعته الى الفرار من التعليم الرسمي بالمدارس الحكومية ، ليفرغ لهذه الشاعرية ، وينميها بطاقات ادبية يحصلها من قراءاته ، ومن اطلاعه الواسع العميق على آثار كبار الادباء والفحول من الشعراء الذين كان يطمح الى بلوغ منازلهم من الشهرة وخلود الذكر ... وكانت النزعة الاخرى هي نزعة الحس المرهف والاستعداد الفطري للمشاركة في الحياة العامة مشاركة حرة طليقة من سائر القيود التي تحد من حريته في الاستجابة لهذه النزعة ...

وكذلك اتجه احمد محرم الى الصحافة ، وقد وجد فيها المنبر الذي يتطلع اليه لتحقيق غايته ، وارضاء طموحه الى الشهرة وذيوع الصيت ، واشباع رغبته في المشاركة في الحياة العامة ، ومعالجة القضايا السياسية والاجتماعية التي تشغل الناس اذ ذاك . وكان ذلك في فترة من فترات نشاط الصحافة واصطراع الاراء في كثيرة من القضايا والمشكلات التي تشغل البلاد في الربع الاول من هذا القرن .

وقد خاض احمد محرم في هذا المعترك في سن مبكرة ، يقول انه لم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى اقبل على الصحف السياسية والمجلات العلمية يكتب فيها عن المبادىء المنتزعة من حقائق التاريخ ، والمذاهب القائمة في صميم الآداب » .

هذا عن احمد محرم . اما عن احمد الكاشف ( ١٨٧٨ ـ ١٩٤٨ ) ، وهو شاعر مصري آخر ، فيقول عنه محمود غنيم ، ص ١٦٦ في نفس الكتاب ، ما يلي :

« وفي السادسة عشرة بدات تتفتح موهبته الشعرية بعد ان نال حظا من علوم اللغة وانس اساتذته فيه ذلك ، فبداوا يدرسون له فن العروض وفنون البلاغة ، فبرز فيهما ، حتى كان يبز اساتذته في بعض مسائل تتعلق بهما احيانا . وفي تلك الفترة زار القرشية عالم فاضل، فاعجب بموهبته ، واقترح عليه ارتجال بيتين في فن الغزل ، فارتجلهما فتنبأ له بمستقبل حافل بالمجد في ميدان الشعر . ومن هنا امسك بطرف الخيط في نظم القريض. وكان له خال ـ يجيد النظم ـ فكان يبعث بانتاجه اليه لينقده له ..

بدأ ـ وهو في السابعة عشرة من عمره ـ يدبج المقالات الصحفية ، ويبعث بها الى الصحف ، وعلى الاخص صحيفتي « العمدة » و « الاهالي » ، فلا تكتفيان بنشر ما يكتب ، بل تستزيدانه مما يكتب . كل ذلك وهو تلميذ. على ان مكانته الادبية الملحوظة جعلته يدل بنفسه ، وينظر الى الاساتذة نظرة من يرى نفسه اكثر منهم ادراكا ، وينظر الى الكتب نظرة من يرى نفسه اكبر من واضعيها عقلا » .

اذن ، فليس غريبا ولا مستحيلا ـ والنبوغ الادبي المبكر ظاهرة ثابتة عند بعض الادباء ، كما راينا ـ ان ينبغ ابو ماضي في مصر نبوغا شعريا وفكريا مبكرا ، سمح له بنظم قصائد معينة في صباه ، لا نستكثرها على شاعر عبقري مثله .

واشنطن

جورج ديمتري سليم



ايليا حليم حنا

# روح الــــــفنان

بقلم ايليا حليم حنا

• • •

فنان سحره القلم .. كرس حياته للادب .. حصل على مال من عمل لا يمت للادب بصلة مكنه ان يبني بيتا كل ما فيه خيالي شاعري ـ أثاثه وتحفه وحديقته ، واعد فيه كل ما تصور انه يلهم الفنان ويعينه على الخلق والابداع . ذهب الى حديقته الجميلة وجلس تحت كرمة بين الورود والزهور الزاهية المتعددة الالوان .

امسك بالقلم .. حاول ان يحمل نفسه ويكلفها ان تستشعر ما لا تحس فخرج التعبير ساقطا لا روح فيه ، وفجا لا مذاق له ... احس بضيق وفتور واراد ان ينصرف عن الكتابة الى القراءة فلم يجد في نفسه رغبة في هذا ايضا . احس ان كل ما هو جميل حوله جماد بارد ساكن فقد بريقه بمجرد انه حصل عليه وعاش فيه . وعجب ان كل هذا الجمال لم يبعث الدفء الى قلبه ولم يحرك حسه وهو الذي طالما انفعل وحلقت روحه عند مروره باحد الاطلال او عند رؤيته زهرة برية صغيرة تنبت بين الصخور !! وراح يعجب من طبيعة تكوينه النفسي ، وسال نفسه في حيرة : لماذا اكتب ؟ ان ما اكتبه لا يعود علي باي نفع مادي ولا يوفر لي حتى ثمن القوت ! لماذا ارهق نفسي واعتزل الحياة التي يستمتع بها من لهم دخلي ؟ لماذا كل هذا العناء ؟ ان هذا الادب لم يكسبني مجدا في حياتي ، وحتى ان كسبت هذا المجد بعد مماتي فما جدواه ؟! انني لن احس به في قبري .

وعزم ان يستمتع بحياته وينعم بما عنده من مال وان يخلي نفسه وفكره من هذا البلاء الذي يضنيه ويبعده عن متسع الحياة . وراح يحلم بالزوجة والولد .. احس انه ينقصه ما يبعث الدفء الى قلبه ويجعل الحياة تدب في البيت الهادىء الساكن .. وشعر بقلبه يهتز يطلب ملهمته .

ملهمتي ؟! اما زلت احن الى هذا العناء ؟! عجيب امري . لا بد انني مريض النفس . انسان يسعى بكل كيانه الى شيء يؤمن تمام الايمان انه لا جدوى ولا فائدة منه .. ماذا يكون هذا الانسان ؟ المنطق يقول انه مريض. انني مريض لا شك في ذلك .. مريض .. مريض فعلا لقد صدق « جيته » عندما اقر ان الفن ينبع من المرض وانه نوع من الاحتجام . وليس « جيته » وحده الذي اعترف بهذا ، قاله « نيتشه » ايضا واكد ان الفن ليس فقط نتاج المرض ولكنه تسجيل له .. وقاله .. وقاله.. واخيرا اثبته علم النفس ..

لا بد لي ان ابرا من مرضي هذا واعيش انسانا سويا عاديا . ساتزوج . فقد تصرفني الزوجة والاطفال عن هذا العناء . ساتزوج فتاة لها جمال فينوس ولكنها تمتازعليها بدفء العاطفة والنظرات المشعة الحية ، والقلب النابض بالحياة والحب ، ويشع من عينها ومضات قلبها ، اسمع صوتها العذب الخافت الهادىء الحاني ، تملأ علي بيتي وحياتي واودعها سر قلبي ، وتكون لي عونا على الزمان .. لا اريدها تحفة كتلك التي وضعتها في حديقتي بين زهوري وورودي .

راح يفكر في فتاته . راح يضع مواصفاتها الجسدية والروحية ... ارادها فتاة حالمة رشيقة القوام ، ذهبية الشعر ، وردية الخدود ، نقية القلب ، ملائكية الاحساس، فنانة لا تنتج فنا ، ولكنها توحي وتلهم وتحيل حياته معها نعيما .

راح في حلمه العميق ، وسرحت روحه ، والتقت بروح الزوجة الملهمة ، رآها كزهرة نقية بين الزهور فوق ربوة .. في غلالة بيضاء تبرز كل مفاتنها والابتسامة الحلوة البريئة على شفتها ، وعيناها الساهمتان الحالمتان كالبحر العميق تشعان شعرا وفتنة . وسمعها تحدثه في خفوت ساحر ودلال فحركت فيه كل احساس خلاق ، فامسك بقلمه وراح يكتب وهو محلق في عالم جميل فاتن ، راح يكتب محمولا على اجنحة الفن والخيال وخط في اعلى الورقة عنوانا طريفا شاعريا « زوجة الفنان في بيت الاحلام »

ولم يكن في كل ما خطه متكلفا او منتحلا .. ظل

يكتب ويكتب عن الزوجة الملهمة حتى تثاءب فسمع وهو كالحالم ضحكة انثوية حلوة ترن في اذنه وتنفذ الى سمعه وقلبه ، واقتربت منه صاحبة هذه الضحكة العذبة ثم طوقته بيديها ، فاحس بحرارة انفاسها وضمها الى صدره وهو يقول : « يا فتاتي ، كنت احلم » فتقول له بصوت ساحر مخدر : وها قد سطرت حلمك على القرطاس ... رايتك تتثاءب فخفت أن يكون قد نفد معين روحك . ان الفنان يا اديبي المبدع لا يتثاءب طالما هو محلق في آفاق علوية .. اخشى ان تكتب شيئا ليس من وحيي انا ، اخاف ان تصطنع شيئا وقد تعبت ونزلت من آفاقك التي كنت تحلق فيها .. لقد كان تثاؤبك ايذانا ببدء الهبوط .

ويقول لها : كنت منذ لحظة اسال نفسي : لماذا اكتب ؟ هل عندك اجابة عن هذا السؤال الحائر الذي يعاودني كثيرا كلما عدت من ذلك العالم الذي اجول فيه بفكري وخيالي ووجداني ؟

انت تكتب لانني احلق في اعماقك ..: انني توأم روحك واشواق قلبك . خلقت معك لحظة ان خلقت .انت معي تتخطى كل حدود الزمان والمكان وتلتزم باحساس داخلي وليس باملاء من خارج نفسك .. لي سلطان عظيم على من اعيش في اعماقه . انني الميل الذي لا يمكن لفنان ان يقاومه . انني الموهبة التي تطلب دواما ان تصقل وتنمو وتخلق .

تقولين فنانا ؟! الم يصل الى سمعك ما قاله جيته ونيتشه وشوبنهور .. وعلماء النفس ؟ تعنين انني انسان مريض غير سوي ؟!

يا اديبي : لن يكون المريض فنانا الا اذا كان موهوبا .. المريض الموهوب تجعله موهبته يتسامى . الم تسمع ما قاله « توماس مان » « ان الفن ينتج من المرض والاضطراب العصبي مثلما تنتج اللؤلؤة من الصدفة » .. « والفن نتاج لهذا المرض ووصف وتسام به » الفن علاج لنفس الفنان ، انه يشفيها مما يؤلمها ، بما تفيض به من احساسات قوية او عاطفة ملتهبة . ومن هنا نشأت الترانيم والمزامير يعبر بها صاحبها عما بنفسه من قلق وضيق والم وسرور وآمال واحلام وحب وسعادة ... وقد عبر « ارسطو »عن هذا بقوله ان الفن تطهير .

ومثيرات الانتاج الفني وبواعثه كثيرة . انها ليست المرض وحده . هناك غير المرض متعة الخلق التي تدفع الفنان الى الانتاج الذي يعرضه على غيره ، ويسعد لما يحدثه من اثر في نفوس الناس .. ويجد الفنان متعة كبيرة في هذه المشاركة وقد عبر عنها « جوبو » ابلغ تعبير بقوله : « ان ثدي الام في حاجة الى الشفاه النهمة التي تلتهمه وترشف رحيقه » وقال : « انني حينما ابصر الجمال فهناك اود ان اكون اثنين لا واحدا ».

روح الفن كامنة في الاعماق وتحتاج الى شيء يثيرها : حب عظيم او الم عظيم . وقد يتجاوب معها لمحة عابرة ، او شيء بسيط قد يكون زهرة صغيرة او حشرة تدب دبة فوق ذرة من الرمل او في مكان قفر وفي كيانها ارادة الحياة ..

وليس هذا فقط كل ما يثير الفنان ، فالفنان انسان قوي الاحساس ، يحس وينفعل بما لا يحس به الانسان العادي .. انه يتأثر بكل شيء في بيئته وفي عصره ، وما يواجهه من مشكلات في هذه البيئة وهذا العصر ، فيعبر عن الرؤى الجديدة ويوجه الى القيم الجديدة التي يرى فيها تطور الانسانية وتحقيق غاياتها .

ما هذا ؟ مع من انت ايتها الملهمة ؟ مع اهل « الفن للفن » ام مع القائلين ان « الفن للحياة » ؟

مع الاثنين معا . فالفن الذي يمتع الناس ويثري وجدانهم ، ويوقظ ارواحهم ، لا غنى عنه للنفس .. هذا الفن الذي يسميه بعضهم « الفن العفوي » يصدر عن اعماق النفس بكل ما في هذه الاعماق من قيم روحية وثقافية وحضارية ويسمو بالانسان فوق نفسه وهو لا يقل في متعته وارتقائه بالبشرية عن الفن القائم على الكفاح لتحقيق انسان اكمل وعالم افضل .. واعتقد ان « الفن للفن » و« الفن للحياة » هما اقنوما الفن ولا غنى عن كليهما .

الفن كالتيار الكهربائي ، احدى شحنتيه في اعماقك والاخرى خارج نفسك ، والتحام الشحنتين يولدا نورا لم يكن في الشحنة السالبة وحدها ، ولا في الشحنة الموجبة وحدها .

والان ، تعال معي اسمعك ما يلهب اعصابك ويوقظ روحك ويشحنك بشحنة جديدة للتحليق . وسار معها الى حجرة الموسيقا ، وهناك امسكت بالكمان فاسمعته الحانا قطرات الدماء المتساقطة من قلوب المعذبين والمتألمين ثم الحانا تسكب في النفس السعادة والرؤى الموحية ، فجلس الى منضدته وقد غاب عن الوجود ، واحس انه يغمس قلمه في نبع قلبه ويسطر ما غفلت عنه القلوب الغافلة . كانت كلماته حية تثير الاحساسات الفاترة وتوقظ الارواح النائمة وتدفعها الى تطلعات روحية وحضارية غايتها ان يكون العالم مكانا فاضلا جميلا يسعد فيه الانسان .. وطرب وهي تقرأ له ما سطر ، وكانت تقرأ كما لو كانت تترنم ترنيمة ملائكية ساحرة .. لقد كان مأخوذا بفنه وكان يردد كالحالم : كم هو جميل عالم التحليق والرؤى ! فترد عليه هامسة : انه عالم الفن يا فتاتي المبدع ... اليس الفن تصويرا للانسانية التي لا تعلق بها شوائب الارض وادرانها ؟ انني لا اؤمن بالفن الشيطاني ولا بالشيطان كفنان . ويقول لها : وهذا الاسلوب ، انه رائع ، انني اعجب كيف كتبته ! فترد عليه: اليس الاسلوب النبيل الرشيق الشفاف صدى للروح العظيمة والنفس الجميلة الحساسة ؟

والان ، هيا بنا يا اديبي الفنان الى الحديقة فقد اعددت لك فيها مائدة شهية تحت الكرمة بين الزهور . وهناك راح في سكرات فنه ، وفي سروحه رآها تجري امامه خفيفة رشيقة وهو منجذب اليها يجري مستمتعا ولا يلهث . وقفت امام نافورة ماء تحيط بها من كل جانب اشجار متعددة الانواع والاشكال والالوان والثمار ، وكان المكان ساحرا جميلا في الضوء البلوري ، راحت تغرد له بصوت ملائكي وكان صوتها الحلو وانغام الناي يملآن الفضاء ، عانقها كالمسحور وكانت تطعمه كام حانية تطعم طفلها الصغير ، احس بالطعام يسري في خلايا عقله وقلبه ولم يشبع فتمتم يقول : انا جائع .. جائع الى مزيد من هذا الطعام الشهي الذي احس به يسري في كياني اشهى بكثير من ذلك الذي يسكت صراخ المعدة .. انني جائع واريد المزيد .. اريد ان احتضن عالم القيم كله بذراعي .. ليتني استطيع. فتجذبه من يده وتسرع به الى مكتبته وتقرأ له من كتاب ثم تقفله وتقرأ من كتاب اخر وتمعن قراءة كتاب ثالث .. وصوت الموسيقا الخافت يسري في اعماقه ويغمرها .

ـ ماذا تقرئين بكل هذا التدقيق والامعان والتفكير ؟

ـ شيئا من الادب الخالد قديمه وحديثه ، وما استحدث في الفكر المعاصر ، وما يجري حولك . الفنان يا اديبي يشعر بالجوع ان لم يغذ نفسه دواما بما خلدته العصور وما استحدثته العقول . ان هذا يصقل موهبته وينميها ويبرزها بالاضافة الى خبراته وتجاربه بغير هذا تضعف روحه ولا تحلق عاليا لان جناحيها الضعيفين لا يقويان على حملها وهي جائعة .

ويعودان ثانية الى الحديقة بعد هذه الوجبة الدسمة وهناك تحت ظلال الاشجار في ضوء القمر الفضي الغامر يحس بوهج خاطف ينبثق داخل نفسه ، انها تجربة جديدة تتكون وتتشكل في باطنه ، تجربة كانت عادية وحاول ان يسجلها منذ لحظات تحت الكرمة قبل ان توقظه ملهمته وتغذيه فجاءت فاترة لا حياة ولا جدة فيها ، جاءت مظلمة خالية من الومضات ، جاءت ميتة لا نبض فيها . والان وقد تغذت اعماقه تبرز نفس التجربة وكلها حياة ووميض ونبض ، جاءت هذه التجربة مبتكرة موحية لم تطاها اقدام الالفاظ المعتمة وكان يحس بها تفيض من اعماقه كما تفيض المياه الغزيرة في الجداول والمسالك شديدة الانحدار ... وراح يكتب ويكتب وكان يشعر وهو يكتب بنشوة وشوق ملتهب وقوة دافعة كقوة الغرائز يغنى فيها الانسان وهو يمارسها لانها ركبت في كيانه . كان يكتب بلذة لا تقل عن لذة الجوعان وهو ياكل او لذة العطشان وهو يرتوي ، واحس بروحه تصفق في اعماقه .

وتقترب منه ملهمته اكثر فيطوقها بذراعيه ويندمجان معا ، ولم يشعر انهما اثنان بل واحد . اندمجا فلم يشعر بكيانها منفصلا عنه . وكان هائما سعيدا وهو يقول لها :

ها قد طوقت ذراعي حول عنقك فلا تحلهما القوات وادمجت نفسي في نفسك فلا يفرقهما الموت . ان الحياة يا روحي اضعف من الموت ، والموت اضعف من الحب .

ويحس بحديثها يرن في اعماقه وهي تقول : صيرك الحب نفسا جاسة كالوتر المشدود ، وروحا تحلق فيما وراء الوجود ، وعينا قوية تبصر ما وراء الضباب ، وقلبا كبيرا كله احساس ورقة وحنان .

من انت ايتها الجميلة بين النساء ؟ من انت ايتها العظيمة ؟ من انت يا من سكبت في قلبي ذوب حبك فجعلت مني انسانا جديدا . لو ان النساء كلهن مثلك لتحولت الارض كلها جنة .. ليت الله يعطي كل رجل امراة مثلك فتخلق منه فنانا . من انت ايتها العظيمة في النساء ؟

انا الجانب الروحي في الانسان . انا غريزة المراة المتسامية ، انجب ولكن ليس اطفالا من لحم ودم بل كائنات نورانية في اعماق الفنان . انا روحك وموهبتك .. حطم الحواجز بيني وبينك تلمس اثري .. ادخل الى باطن جسدك تجدني هناك .. انظر الى العالم داخل نفسك تتيقظ روحك وتحلق عاليا حتى لتكاد تلمس الجمال الرائع .. ثم اهبط الى الارض لتلمسها عليها وتهذبه بفن السماء ، تهذب قلوب الناس وتعطيهم الحكمة والمتعة الروحية ، تجذبهم الى الجمال وتسمو بنفوسهم وتفتح لهم آفاقا جديدة وتثير فيهم قوى التامل والتفكير الحر ، تصقل تجاربهم وتجعلها شفافة فيها سمو ورفعة ، تنقل اليهم نبضات قلبك وضياء روحك فيحسون كما تحس ويرون ما تراه ، تنقل اليهم هداك وتزرع قلبك بين خباياهم .

لا تمض كل ايامك في برجك العاجي .. يجب ان تنزل منه بعد ان تغسل روحك هناك وترى كل شيء امامك شفافا كالبلور وقد ازحت عنه كل سحب الدخان وخلصته من عتامته... عندئذ اهبط من برجك الى عالم المحسوس ، خالط الناس وعش تجاربهم ، شاركهم في آلامهم ، تألم معهم ثم اسكب دماء قلبك على القرطاس فيصل رشاشها الى القلوب ويؤثر فيها ويسمو بها ويبعث فيها التطلعات الى انسان افضل في عالم جميل سعيد . وبغير هذا لا يكون الاديب ذا تاثير بل يكون ضحلا لا عمق ولا اثر له . ان مهمة الاديب العظيم هي مساعدة الناس على فهم انفسهم وكشف شرورهم واخطائهم في سلوكهم .. ولن يسيطر الاديب على النفس البشرية الا بفهمها وادراك كل الظروف المحيطة بها .

وتدق ساعة الحائط في ردهة البيت تعلن السابعة صباحا فيفيق اديبنا ويسكت كشلال انقطع عن الهدير ويقوم مهرولا فقد حان الوقت الذي يذهب فيه الى عمله ... ويتمنى لو انه كان في الامكان ان يكسب من ادبه فينقطع له ولا يقطع ساعات الالهام والانتاج ولا يشغله عن

# وقفة عند بدر

نعمان ماهر الكنعاني

انشدت في الاحتفال الكبير الذي اقامته جمعية الاداب الاسلامية في الحضرة الكيلانيـــة بمناسبة ذكرى وقعــة بدر ٠

* * *

لا القــوافي ولا رفيــع البيــان    فيــك ان رام نــاطق يرفــدان
وقفــة لي على ثراك اعــادت    الف نجــوى رفافــة الوجدان
اين شــوقي على التنائي لهيفا    من هيــام اللقيا غداة التداني
هي ذي (بدر) والطريق الى البــئر ، سلام على الثرى والمغــاني
واعــدت الزمــان الفــا وبضعا    من مئــين ، جهيرة القــرآن
وقرات الثرى بغــير حـــروف    مد جــلى الرمــل ناطقات المعاني
سلم الرمــل ، كم له من حديث    كصلاة النجــاة والغفــران

يــا رباها ، وانــت سفر عريق    كيف هــب الفرسان للفرســان
كيف جاءت قريش عــودا صليبا    وانتخــاه يتيــه بالعنفــوان
وعنــادا يخشــى الملام ويرضى    خيفة القــول مسعرات الطعــان

---

انتاجه شيء ٠ لا بد من حمام ينعشه فانه لم ينم طــول الليل ولا بد من لقمة ياكلها لانه شغل بفنه عن كل مطــالب جسده .. ٠ ويقف عند ما كتب وينظر اليــه طويلا كمن ينظر الى كنز ثمين فتح عينه عليه فوجده ملكا له. ويقلب اوراقه التي سودها بدم قلبه ونور عينيه واعصابه وسهره وجوعه وتعبه ويقع نظره على العنوان الذي بدأ به موضوعه فيشطبه ويكتب فوقه « روح الفنان » فان ملهمته لم تكن امراة من لحم ودم .. انها كائن روحي شفاف لم يغلفــه جســد .. انها ملاك نوراني ساكن في اعماقه ..

ويدخل الحمام وفي راسه الف خاطر وخاطر ويترك الماء البارد ينزل على راسه وجسمه ويدور حوار باطنــي بينه وبين نفســه : يا لها من ساعات قيمة خالدة تلك التي عشتها امس ويا لها من فريدة موحيــة تلك الفتاة الــتي عايشتها روحي ، لو كان في عالم المحسوس مثلهــا لفاق لمنها اللالىء ولجعلت من حياتي نعيما مقيما ، وجعلت من كل رجل فنانا عظيما !

ويخرج من الحمام ويحس انه ما زال متعبا ثقيــل الراس ، خائر القوى وانه يكاد يموت جوعا .. ولكن ماذا يعمل فانه يتحتم عليه ان يذهب الى عمله في الحــال و٠لا فانه سوف يتاخر ٠

ويحس بالجوع والانهاك وهو سائر الى عمله ولكنــه يحس في اعماقه بالسعادة الغامرة ، ويتمنى لو ان كــل ايام وليالي عمره تكون كليلة امس ... ما اجمل ســاعــات الخلق الفني ، وما اروع لحظات الميلاد في حياة الفنان ، تلك اللحظات التي تجعله يهيم في سعادته وهو يرى الدنيا في حصاة من الرمل ، والعالم العلوي في زهرة برية ! ولا بد ان « تولستوي » كان يقصد تلك اللحظات العظيمــة عندما قال « لايفان بونين » وكان « ايفان » وقتها كــاتبــا ناشئا مفتونا هائما بروحه في سماء الفن : « لا تنتظــر كثيرا من الحياة ، انك لن تلقى اياما احسن من الايــام التي تلقاها الان ، فليس في الحياة سعادة ، وانما لهــا بوارق من الحين الى الحين ، وعليك ان تقدر هذه البوارق وتعيش عليها ٠ » تلك البوارق والومضات الــتي تشع عندما تستيقظ روح الفنان فتنسيه كل متطلبات الجسد وشهواته وترفعه الى عالم علوي فيه كل ما لم تره عيــن وما لم تسمع به اذن على هذه الارض غير عين الفنــان واذنــه .

القاهرة    ايليا حليم حنا

وصفوفا قد رصها الغيظ حتى    جمح الحلم عن هدى الحسبان
كبرياء عريقة ، نازعتها    حلبة النصر ، عزمة الايمان
وعريش الهادي يطل على السا    ح ، عليه حماية الرحمان
وحماة الاسلام تهتف باسم الله ، والموت لعبة الاقران
وحسام يفري بغير انتخاء    وحسام ينبو بغير حران
صولة عن عقيدة ، ونزال    عن غرور ، في الساح يصطرعان
عجب النصر ، كيف يمتلك الميدان    رهط يضيع في الميدان
ويولي الادبار حشد تعالى    منه لمع السيوف والمران
لم تكن ترسل السماء جنودا    قبل ذا اليوم ، ايها السائلان

وقفة لي ، وما سالت رسوما    شاخصات تهم بالتبيان
او سمعت التاريخ يتلو حديثا    جل عن شبهة لسمع الزمان
او اعنت الذكرى تسربل بالمجد    وتبدي جلالها العيان
ها هنا افضت السماء الى الار    ض بسر الخلود للانسان
ودعته شهادة ، وهبتها    من راى النفس اقرب القربان
ها هنا شادت السماء لدنيا    الارض صرحا ممنع البنيان
رفعته بنورها وحمته    بالضحايا من طامع العدوان
ها هنا ، ما ارى تلالا تماوجن ، ام النور حل في الكثبان
ها هنا السفح واحة وظلال    نظرتها القلوب بالخفقان
والهضاب التي يعانقها السر    ب تحطت من الحصى بجمان
والسراب اللماع تستاف منه    ارجا ، ما عهدت في الغيطان
وسنى الشمس ، ماج في مائج الصحراء ، دفق من الضياء الحاني
وسطور الخزام تقرؤها الغدران سرا محجب العنوان
وهب النصر للالى وحدوا الله وللشرك ذلة الخذلان

هي ذي ( بدر ) يا فؤادي ومنها    امتد ظل الهدى على الاكوان
انا لو لم اخف عليك من الزيغ    لصليت للثرى الظمآن
وضممت الحصى الى الصدريذكي    في ضلوعي انفاس لهفان عاني
وتضمخت من تراب مشى النصر    عليه مضمخ الاردان
اتراني اسرفت ان قلت هذي    دارة الله في حساب المعاني
انها مهبط الملائكة الابرار    جاءت بنفحة الديان
حرستها انفاسهم في لقاء    خشيت منه راسخات الرعان
واسترابت من وقده عزمات    لم تلن قبلها على الحدثان
قالها المصطفى، ايا رب ان تخذل    فلن تعبد، فارف بعصبة الايمان
لا ومن شاء ان تعز بك العرب ، وكانوا في قبضة الاوثان
اتراه اصطفاك ثم يخليك    مهيضا في سورة المعمعان
كتب النصر في السماء وقد جا    ءت بيشراه آية الفرقان

بغداد    نعمان ماهر الكنعاني

الارض ثابتة من تحتي .. وانا مضطجع ، التهى بالتطلع عبر النافذة حينا .. والى الداخل حينا اخر .

سعيد بوحدتي وابتعادي عن الناس ،وحتى عن اقرب الناس الي . نعم ° العربة والوحدة اروع ما يحيى به الانسان .

لم يسر القطاربعد .. وكنت انتظرالوافدين الى قاطرتي ، وكل ما كنت ابغيه وارجوه ان احشر مع انسة لطيفة حلوة .. تضفي على رحلتي المزيد من المتعة ، او سيد مهذبراقي التفكير ، اجتر واياه الاخبار السياسيةوغير السياسية ، اسائله عن رايه في الريفوالزهرة. او سيدة كبيرة نوعا ، متزنة ممتلئة بالحكم والتجارب .. او انسان ظريف سريع النكتة اضحك واياه كل لحظة .° وعلى الله سبب.

لكني لم احدد تماما زوار مقطورتي ، لان اي انسان ياتي سوف اجد عنده مجالا للحب والحبور ما دمت سعيدا ، منطلقا من الف قيد وقيد،، والف مسئولية ومسئولية .

وحضرتني اغنية عبد الحليم حافظ (جئت لا اعلم من اين اتيت ) فامرني ضحك شديد لهذا التساؤل ، خبات فمي بيدي وضحكت، خشية ان يضبطني احد فاتهم بما انا في غنى عنه . ( ولكني اتيت ) ضحكت وانا اتسائل هل يخطر في بال انسان ان يتساءل من اين الى ..؟ علق في ذهني اللحن والكلمات .. كما يتعلق القرد ... باغصان الشجر °.. وراحت هذه الاسطوانة الصغيرة فيراسي تدور وتدور دونما توقف ، او محاولة للاعادة. هربت ضحكتي ، وغالبني البكاء ، والجملة الشيطانية ما زالت تلح علي الحاحا شديدا ( ولكني اتيت )، ( ولكني اتيت ).

جرت الباب سيدة اول ما ظهر فيها قبعتها الكبيرة ، المتلئة بالفواكه . كسلة يعود بها الى البيت رب عائلة ، ضحكت من اسفل القبعة وسالتني بسذاجة :

ـ هل هنا مكاني ؟!

دهشت ،، هربت سعادتي كقط سرق قطعة لحم ، التفت الى النافذة دون ان اجيب قالت :

ـ اوه انت .. انت .. الا تسمعني ؟!

قلت لها اول ما قلت :

ـ وهل انا زوجك °؟ يا سيدة .؟

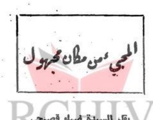
غضبت وهرولت مسرعة . فرحت لانني اغظتها ، وانتقمت مني طبعا انها لم تعد الباب كما كان . وعلي انا ان اقوم بهذا العمل ، ورددت في داخلي مبتسما : جاءت لا اعرف من اين اتت .. ولكنها اتت .

في اللحظة التي كنت اغلق فيها الباب .. احسست بقوة رهيبة تشده الى الطرف المعاكس ، فرحت اشد بقوة ، والقوة المقابلة تعيد الباب الى وضعه ، اصابني التحدي فرحت اشد بكل قواي .. لكن قوة مماثلة جابهتني ، تعبت، بذلت قصار جهدي،نسيت اهمية او سخف ما انا افعله ، ولم يبق في تفكيري سوى ان اغلق الباب الذي تركت مكاني كي اغلقه .°.

زادت القوة الاخرى على قوتي ، فاقتلعت يدي من المكان المتشبثة فيه .. وارتطمت على الارض .. وبينما كنت في عذابي والمي، . اطل رجل طويل عريض .. صارم النظرات وقال بجلافة :

ـ يا لك من غبي.°؟ ما الذي تفعله .. هل ادخل الى قاطرة .؟ ام الى حلبةمصارعة؟!

احسست بغبائي الكبير .. ولا اعرف لماذا شحذت كل قوتي لفعل خاطىء ، اين يهرب العقل احيانا.؟! لست ادري.؟ افقت من وقوعي . لافحص هذا الاتي، والذي لا اعلم من اين الى .. تصورت كثيرا من النماذج .° لكني لم اتصور ان يشاركني الرحيل




بقلم السيدة ضياء قصبجي

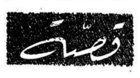
( مصارع ، من الوزن الثقيل ) جلس قبالتي قرب النافذة .. تحاشيت نظراته . واذا به لا يدع عينيه ترسلان اية نظرة خارج نطاق عيني.. عرفت انه يود الحديث معي . فالتقت نظراتنا .. شعرت بكره « عميقنحوه .° عيناه كبيرتان .. اذناه كبيرتان .. فمه كبير .. انفه كبير .. كل شيء فيه كبير عدت اتملص من نظراته .. فابتدرني قائلا:

ـ اتحب المصارعة .؟!

قلت متضايقا :

ـ بل امقتها .. وامقت كل المصارعين°. رفع كفه وانحنى امامي ضغط على راسي فحسبت اني غصت في المقعد ولم يعد لي وجود في القاطرة .. بل خرجت من الطرف الثاني. قال :

ـ يا لك من احمق .. الم تلاحظ اني




مصارع .. فكيف تقول لي هذا ؟!

قلت له بصوت مرتفع :

ـ مصارع هناك °. وليس هنا ..

قال ضاحكا :

ـ بل وهنا .. هيا اخلع ملابسك .؟!

كرهت حياتي من كلامه هذا .. خطر لي ان اذهب فاشكو امري الى مدير القطار،واطلب منه ان يغير مكاني او مكانه .. ثم سرعان ما نفذت ذلك .. وقال لي من شكوت امري اليه ضاحكا .°. وغاضبا :

ـ غريب ما تطلبه .. اذا كنت ذا اعصاب مرهفة .. فلم لم تحجز المقطورة كلهالاجلك؟!

ام تريدني ان اقوم باختيار وفحص الناس الذين تحشر واياهم في القاطرة .؟.

ضحك من جديد وقال لصاحبه : اسمعت. منذ خمسين سنة اعمل في القطار .. لم يطلب مني هذا الطلب ، ارايت °؟ انه يريد ان « انقي » له الركاب على هواه ..افهمت.؟ انه ....

عدت من حيث اتيت .. خائبا حزينا. فتحت الباب ، واذا بهذه الثواني القليلة التي ذهبت فيها قد اضاعت لي مكاني ... وامتلات القاطرة بالناس .. امراتانتتهامسان وتتضاحكان بغنج فاضح.. رجل عجوز بشكل يلفت النظر .°. وكذلك سيدة عجوز متعبة. مجعدة الوجه . حز في نفسي ان يضيع مكاني قرب النافذة .. فرحلتي كلها من اجل التحرك قربنافذة فيهذا الربيع الاخاذ، الارض خضراء متماوجة .. وزهر الاقحوان. وشقائق النعمان ... تزين الحشائش. من اجل هذه المتعة الربيعية .. غرقت فياثانيتي. تركت اولادي . وهربت وحدي دون ان اعلم زوجتي الى اين ..

مررت بين الجالسين، ومسح اسفلبنطالي احذيتهم ، الممدودة في الطريق والتي لم يزيحوها لباقة ° وقفت امام احدىالسيدتين اللاهيتين . وقلت لتلك التي تجلس مكاني مشيرا باصبعي الى حضنها :

ـ اذا سمحت هذا مكاني .. واشرت باصبعي الى اعلى ، مكان الرف الذي توضع فيه الاشياء .. وقلت :

ـ وهذه اشيائي.

لم تجبني .. التفت الى صديقتها وفمها مملوء بالضحك . وغدا خداها كنفاخة معبأة بالهواء ، نظرت الاخرى واطلقت ضحكة عالية مع رذاذ اصابني واشعرني بالقرف ° ولم تجبياني عدت القول للاخرى بشيءمن الحزم:

ـ قلت لك هيا .. لقد قضيت حاجة ما.. ويجب ان اعود الى مكاني .. لقد جئت باكرا خصيصا لاجلس هنا .. افهمت ؟

لم تبال .° عادت للالتفاتة الى صديقتها، وللضحك المشترك .. تضايقت كثيرا مددت

يدي امسكت يدها وانتزعتها بقوة .. وقلت في نفسي مع اللحن طبعا لان اللحن ما ينفك يلح في راسي. جاءنا لا اعلم من اين . جاءنا .. ولكنهما اتنا •.

دهشت من تصرفي .. وقالت بميوعة واضحة :

ـ يا باي.. ما هذا الرجل .•؟

قلت لها :

ـ لتعرفي ان ليس كل الرجال يفضلون الجميلات ..الجميلات .. انا افضل السيدة المهذبة اللطيفة •

احتجت وصرخت .

ـ اوه يا ميتشا انه يطعن في اخلاقي ايضا .. اسمعت .؟ قالت الاخرى الجالسة :

ـ انه شعبي اكثر من اللازم ..

جلست مكاني والتفت ممتعضا الى صديقتها التي التصقت بي ، بقيت مشكلة جلوس الاثنتين قرب بعضهما .• مما اضطرهما لان يطلبا من العجوز الاخرى ان تبتعد الى الداخل وتفسح مكانا لهما ... العجوز المجعدة الوجه .. كنوع معين من القماش. قالت :

ـ لستضعفانني •. وتسيطران على مكاني؟ لو كان معي زوجي .

ضحكنا .. شعرت بحزن عليها .. لكنني تلهيت بالنظر الى النافذة ، في الوقت الذي تهادى القطار وانساب في احضان الطبيعة الجزائرية الساحرة .. في طريقي من الجزائر العاصمة الى سطيف المدينة العالية ذات الثلوج الشتائية •

الاغنية ما تزال تلازمني حتى وددت ان اطرق راسي في الجدار .

« جئت لا اعام من اين اتيت ».. وقلت ناظرا الى كل المحشورين معي والتصقين بي ..

جاؤوا لا اعلم من اين اتوا .. لكنهم جاؤوا •

كنت مسرورا للغاية وانا ثابت مكاني واقطع المدى البعيد في آن .. فهذه هوايتي ان، اجمد مكاني وانتقل من مكان الى آخر ..

مررت ببطء على مساحة كبيرة جدا من الاشجار المتفتحة الزهر .. تلك الازهار التي تمنحني الحب والراحة اكثر من اي انسان.• الزهرة صغيرة مفرضة . ذات اربعة اوخمسة فصوص . بيضاء كالثلج .. ومتداخلة مع فصوص اخرى زهرية اللون . وفي نقطة المركز .. نقطة سوداء . وشعيرات قائمة حولها ، كنت شاردا سابحا في بحر سعادة.. واذا بشيء صلب يقع فوق راسي بقوة اطارت صوابي ، وضعت يدي على راسي بقوة وكتمت صراخي .. ما هو هذا ؟ تدحرج الشيء الى ( حضني ) فرأيت تفاحة حمراء جميلة . ملساء لامعة .. هذه المذنبة. حطمت راسي مباغتة ثم استقرت في حضني .. واكثر من كل هذا انها ليست لي فليس في جعبتي تفاح..

تضاحكت السيدتان ، وقالت اللاصقة بي:

ـ اوه اسفة .. يبدو اني لم احكم اغلاق الحقيبة .. لم اجبها . كنت انظر الى التفاحة الموحية لي بالف معنى ومعنى .. فقالت السيدة :

ـ خذها .. انها لك .

وخجلت كثيرا من عملية مضغ التفاحة وتحريك الفكين.. واحرجت ايضا فلم يكن في امكاني بعد هذه الملاطفة من السيدة الجميلة ان اعيدها الى مكانها او اردها لها .. وهكذا بقيت في يدي، لاحت مني التفاتة الى المصارع . فالفيته ينظر الى يدي وتفاحتي بشهوة بالغة ..: عرفت حال المصارعين انهم يحبون بطونهم



السيدة ضياء قصبجي

☆

كثيرا.. لكن دابه على النظر الى التفاحة ازعجني فمددت يدي وقلت له :

ـ تفضل ..

فابتسم ، قال وهو ياخذها :

ـ شكرا ..

مباشرة مد يده الى فمه وراح يقطع باسنانه الغليظة قطعة ضخمة ، ثم يلوكها قليلا ثم يبتلعها ، فيقضم قطعة اخرى ، كرهته اكثر من ذي قبل ، سررت لسخرية السيدتين من منظره المضحك . العجوز اخرج من جعبته سندويتشا ملفوفا بالورق ، امسك واحدة وقدمها للعجوز التي تجلس قبالته، عوضا عن ان تشكره قالت له بفخر ونشوة:

ـ اني لا اعرفك .. زوجي لا يسمح لي بان اتعرف الى رجل سواه ..

ضحك العجوز وقال لي لانه رآني اتطلع اليهما بالحاح وفضول :

ـ انه يخاف عليها ..

ضحك فظهرت اسنانه المصطنعة .. واندفعت للامام فضحكت وتطلعت اليها فرأيتها مزهوة ، وكانها جميلة وصغيرة تصد اجمل الشباب .

ما اروع الحياة ايها الناس ...

عدت القي بنظراتي الى تلك الارض المزروعة بالفول الاخضر يتماوج مع النسيمات اللطيفة ذات اليمين وذات الشمال . اشتهيت ان اقطع عدة قضبان من الفول .. وامزق ستارها الخارجي .. لاحصل على الحبات الخضراء فاقشر القشرة الرقيقة واكل اللب ، ثم ارمي بالقشر من نافذة القطار .

تذكرت ان لي سلة صغيرة فيها شيء من فستق العبيد الطازج وفيها «السندويتش» صغير من لحم الدجاج ، وبرتقالتان » وحبتا موز ، وحفنة كبيرة من البزر . عدا ملابسي الداخلية وبدل واحد خارجي ، جلبتها كي البسها في الحفلات والسهرات الليلية التي اتفقت مع صديقي على الذهاب اليها .. معي ايضا فرشاة اسنان وشبشب .. ورحت استعرض اشيائي ، اهم شيء « الصابونة والبيجاما » وادوات الحلاقة .

وثقت لاني بسلتي المتلئة بالماكولات، فالطريق طويل جدا يستغرق سبع ساعات، ولو انه يوجد مطعم في القطار ذاته . اذا اردت الغذاء الجاد .

مددت يدي فلم اعثر على سلتي .. مددتها اكثر الى الداخل .. لم اعثر عليها .. طار صوابي اين الحقيبة والسلة .. رميت اشياء السيدتين بنزق وبحثت من جديد فلم اعثر على شيء ، قلت لهما اين وضعتما حقيبتي؟ فاستنكرتا ذلك بشدة.، وحين الححت عليهما اقسمتا لي بانه لم يكن هنالك شيء عندما جلستا مكاني.

كرهت كل شيء .. النافذة المطلة على الفوضى والحقول .. وتحول الجمال الطبيعي الى قبح وبشاعة لا حد لها .. ما احوجني الى هذه الاشياء .. ليس في جيبي سوى قليل من النقود ... ولا استطيع ان اعوض ما ضاع » ولكن اين ضاع وكيف .. ولماذا؟ لا ادري .. وجاء اللحن والكلمات .

جئت لا اعلم من اين اتيت ... ولقد ابصرت قدامي طريقا فمضيت .

جلست وانا اشعر بالظلم والانسحاق والتعاسة .. اتيت لاتمتع بجمال الطبيعة والربيع ام لاتحمل كل هذه الالام والخيبات.

الجميع ابدوا اسفهم على ما حصل معي..

## الطيوف الراحلة

★

وبدات تغرب ، يا حبيب ، اليوم لا قبله !
وبدات تغرب عن وجود كنته كله !
وبدات ترحل مع طيوف خلتها قله ..
وهي الظلال الهيف من روض بكى ظله ..
وهي القوافي من غيون الشعر منهله
وسحائب يا .. يا قصي اليوم منثله ..
وقصائد ، ناجاك منها الحرف ، مخضله
ومساكب بالعطر ما راعيت مبتله
وبدات تغرب عن وجود كنته كله
وبدات مغتربا ، حبيبي ، ضلها سبله
ومصليا قد تاه .. لم يحرك له قلبه
ومسافرا فقد البليل .. وكان من دله

اميرة الحوماني

لكنهم اغتبطوا لان هذا لم يحصل سهم شخصيا . انا اعرف شعور الناس لقاء الملجوعين من الناس الاخرين .. ( خاصة في مثل هذه الامور ).

تجملت بالصبر .. وجلست كئيبا حزينا.. انفث سجائري كلها بشكل متواصل .. وبلا انقطاع حتى ضج الجميع وقالوا .. اصبحت القاطرة مدخنة .. وبما اني متضايق لااحتمل اي تعليق قلت لهم لتذهبوا جميعا الى الجحيم .. اني لن اطفىء سيجارتي ابدا.. فتحوا النافذة . فتسرب الهواء مزعجا قليلا .. لم اتكلم . كل واحد منهم شتمني واباح بشتيمته الى صديقه ، وقالوا نعم.. لقد سمعتهم يهمسون بوقاحة : دعوه انه شرير .. ينتظر امرا ليرتكب جريمة .

فجاة فتح باب القاطرة .. واطل منه اثنان من الشرطة .. قالوا زاجرين :

ـ الهويات ...

باطمئنان مددت يدي إلى جيبي الداخلي ابرز لهما هويتي .. بحثت .. وبحثت دون جدوى ... لقد سرقت مني محفظة نقودي وهويتي ايضا وبطاقة القطار .. يا للهول والفاجعة .

قلت لهما :

ـ لقد سرقت مني كل اشيائي.. والله .

تبادلا نظرة شك .. ثم قالا لي :

ـ الا تعرف اننا نبحث عن قاتل .. في هذا القطار ..

ـ قاتل ؟؟؟ يا لجمال الطبيعة الاخاذ.. الازهار المريحة .. الجلوس قرب نافذة شفافة يصفق كل سعادتي .. كما يمتص المسلول دمه .

قاتل ..؟

ـ نعم لقد بلغنا في البحث عنه من مدينة الجزائر.. اعطنا هويتك وبطاقتك .. قلت بياس :

ـ قلت لكم ان اشيائي كلها قد سرقت.. ضحك الجميع .. بكيت انا . قبض على يدي اليمنى .. سمعت احدى السيدتين .. تقول للاخرى :

ـ منذ البداية .. عرفت من وجهه انه مجرم .

تطلعت الى وجهي في المرآة .. هل صحيح ان وجهي وجه مجرم منذ البداية .. هذه الحقيرة كيف تجرا على وصمي ؟؟

قال الصارع : منذ اول لحظة رايته يشد الباب فاقدا اعصابه وغير طبيعي.

قالت العجوز :. غير مكان ثلاث سيدات .. كي يجلس قرب النافذة .. قال العجوز : كان ينظر الي والى هذه العجوز اكثر من تطلعه الى الخارج..

وفي وسط ضحك مشترك لكل من في المقطورة.. خرجت مقبوضا علي.. دون صديق يقف جانبي ويثق ببراءتي، خرجت مدهوشا.. اتساءل .. ترى ما الذي وجده القاتل في شخصي ... ليلبسني هذه الجريمة .. ولماذا انا وليس غيري .. لاحت مني التفاتة الى المرآة الصغيرة ... فوجدت وجهي مثلما اراه كل يوم .. ولكنه ممسوح بالخيبة والدهشة .. سررت لاني الوحيد الذي يعرف ان هذا الذي في المرآة وجهه ..والذي هو انا .. ليس قاتلا .

استنكرت قول السيدة : منذ البدء وجدت في وجهه ملامح الاجرام ..

كم يتظاهر الناس بالذكاء .. وهم الاغبياء؟؟؟

سرت معهما صامتا مكتئبا .. لكن الغنية قائلة تتردد على مسمعي من نفسي :

جئت لا اعلم من اين اتيت ...
ولقد ابصرت قدامي قطارا فمضيت ...

حلب — ضياء قصبجي



عادل الغضبان

# عادل الغضبان ومجلة الكتاب

## ١٩٠٥ – ١٩٧٣

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

* * *

عندما يفقد ارباب المعرفة ، وخلان الاداب صاحبا لهم ، او صديقا عزيزا عليهم ، او استاذا ينفح قلمه بنثار الشعر والنثر ، واللطف والتواضع ، انما هم يفقدون جزءا من قوة وجودهم ، وعنصرا من جوهر كيانهم ، وروحا كريمة في دنيا حياتهم .

وكان المرحوم الشاعر الناثر والصحافي المتمرس الاستاذ عادل الغضبان من فئة خلان الوفا واخوان الصفا ممن فقدتهم دنيا الصحافة ، وسوح الثقافة . وظل مكانه شاغرا في «دار المعارف » وفي اوساط الادب ، وبين سمار الشعر ، وتسابيح الخيال .

في خلال الحرب العالمية الثانية المهلكة ، والتي شغلت الناس عن وجدانهم الذاتي ، ووجودهم الانساني، صدرت مجلة في القاهرة عن دار المعارف بمصر هي « الكتاب » فوجد فيها الادباء فسحة لكتاباتهم الرصينة ، والشعراء مهبطا لوحيهم . كما لامست شغاف قلوب القراء في العالم العربي والشمال الافريقي . وكانت اول اطلالة للكتاب في شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ م المصادف لشهر ذي القعدة سنة ١٣٦٤ هـ. واشرف على رئاسة تحريرها الشاعر المرحوم عادل الغضبان ( ١٩٠٥ – ١٩٧٣ ). وقد صدرت في ١٢٥ صفحة من القطع الوسط . واحتوت المجلة في عددها الاول على اضمامة من المقالات ، والقصائد،والانباء الادبية في العالمين الشرقي والغربي ، واعتنت بالتراث العربي القديم وخاصة المختارات الشعرية الرائعة منه .

كما انها اعطت النقد ، والتعريف الفني، والمرأة، والتراجم ، والمسرح ، والقصة، واعلام النهضة الحديثة، حصة واسعة من صفحاتها .

وكان من كتابها البارزين الاساتذة الاجلة : عباس محمود العقاد ، عبد الوهاب عزام ، ابراهيم عبد القادر المازني ، احمد محمد شاكر، اسماعيل مظهر ، زكي محمد حسن ، احمد زكي ، محمد عبد الغني حسن ، بنت الشاطىء ، علي الجارم ، محمود تيمور . وغيرهم ..

وكوكبة من الشعراء المصريين والعرب الاخرين من سورية ، ولبنان ، والاردن ، والعراق، والمغرب العربي، وظل الاستاذ الجليل « شاعر الاهرام » الاخ محمد عبد الغني حسن ملازما لها ، فارسا معلما في ميدانها، الى ان توارت واحتجبت عن افق المعرفة العربية .

كانت « الكتاب » تمنح الادباء مطارف من اردية الود ، وهدايا التقدير . لان الجانب الادبي فيها كان طاغيا على الجوانب الاخرى ، لان رئيس تحريرها « الغضبان » هو من رياض الادب ، ومن اغراسه المثمرة.

وصدرت كلمة التصدير في عددها الاول لصاحب دار المعارف الاستاذ الناشر نجيب متري . ويبدو لنا انها برزت باسمه ، ولكنها من انشاء الاستاذ عادل الغضبان . ومن طريف ما جاء فيها قوله :

« للفكر رسالة سامية ، ولرسل الفكر حواريون وانصار ينشرون اراءهم ويذيعونها في الاقطار ، فتنبسط انبساط الضوء ، وتنير معالم السبل للنفوس الضاربة في مجاهل الحياة .» ثم اردف بعبارة لطيفة وفكرة جديدة قوله : « ولئن كان المؤلفون هم رسل الفكر ، ان الناشرين هم حواريوهم وانصارهم يتلقون منهم تلك الرسالة المقدسة فيبثونها في الناس مزهويين بتلك المشاركة ، في جلال الغاية ومحمود الاثر ».

ومضت الكلمة مطرية جهود « دار المعارف » وخدماتها على الشرق العربي ، وعالم الفكر والمعارف والفنون .

.. وبعد كلمة التصدير هذه جاءت كلمة المرحوم الاستاذ الشاعر الغضبان عن الكتاب بقوله الرائع :

«ان الكتاب في تحديده المادي هو مجمع الحروف والكلمات ، وفي تحديده المعنوي هو الوسيط بين ذهنين ينقل من هذا الى ذاك عصارة الفكر ، وخفقة القلب ،ويجعل بين الكاتب والقارىء مشاركة روحية يختلف اثرها باختلاف قوة طرفيها . »

وقال الكاتب عن قيمة المطالعة بقوله :

« ومهما اوتي الانسان من عبقرية فقد تجف نضارتها فيه ان لم يتعهدها بري المطالعة .» وتكلم عن خدمة الامة العربية بميدان التعليم واهداف المجلة فقال :

« واما هدفنا فيها فان نضطلع بخدمة العرب عن طريق نشر الثقافة ، ووسيلتنا الى ذلك الهدف رأي حر وقلم نزيه نقدم بهما الى القراء ثقافة عامة مستمدة من اروع ما تفتقت عنه اذهان الشرقيين والغربيين ونبضت فيه قلوبهم ، وابتدعه خيالهم ، وانتجته عبقريتهم ، هذا الى عناية قصوى بالكتاب العربي لعرضه للجمهور عرضا صحيحا ونصوره له تصويرا صادقا بعدسة النقد او التعريف على ما يحتمله المقام .»

سياسة المجلة : تحدثت المجلة عن سياستها العامة فقالت بلسان الاستاذ عادل الغضبان قوله : « اعتزاز بعربيتنا ، وزهو بالعقل العربي دون انتقاص لسواه من العقول ، وبناء ادبنا الحديث على اركان ادبنا القديم، متاثرين بالعصر الذي نعيش فيه ومستحدثاته ، ومفرغين المعاني العصرية في قوالب من بلاغتنا التي مرت عليها العصور وهي حيث هي قوة ، وجدة وكمالا . ثم اشاد الكاتب بالعقل العربي فقال :

« وعندنا ان العقل العربي كالعقل اليوناني من اسمى عقول الجنس البشري واجدرها بالتمجيد والتعظيم .»

وتحدث عن الادبين الغربي والعربي فقال : « ليس من العزة ولا العدل في شيء ان نهلل للادب الغربي ، لانه غربي ، ونهون من شان ادبنا العربي لانه عربي ، فبعض ادباء نهضتنا الحديثة بل ادباء العرب الاقدمين قد يكون نصيبهم من الخلود اوفى من نصيب كثير من ادباء الغرب .

القديم والحديث .. وتحدث باسلوب صريح عن القديم والجديد والحركة والجمود ، في الادب العربي فقال : « فالدعوة الى احياء القديم وبعث نفائسه وذخائره والركون اليها في بناء جديدنا ليست دعوة الى الجمود وحيلولة دون النمو والرقي . فالنمو حاصل لا محالة اذا كان الغرس على اصول طيبة ولنا من تراثنا اصول يغبطنا بل يحسدنا عليها كثير من الامم الحديثة .»

وختم كلمة الجزء الاول من المجلة في قولة حكيمة الى الشباب العربي ورسالته الانسانية العربية بقوله:

« ولن يستشعر شبابنا هذه الروح الااذا بثثنا فيهم عزة الاجيال ، وكرامة الحقب » .

رحمة الله ومغفرته لروح عادل الغضبان ، فقد كان طيب النفس ، لطيف الذات ، سمح التعبير ، رقيق النقد ، ياخذ بيد الكلمة الطيبة ، من غراس الفكر الواسع الافق ، ويبعث بها الى قراء « الكتاب » ومحبيه .

بعثت له يوما بكلمة صغيرة عام ١٩٤٦ معقبا فيها على بيت شعري اورده في افتتاحية له في المجلة ونسبه للواوا الدمشقي . وهو :

وارسلت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردا وعضت على العناب بالبرد

وذكرته ليزيد بن معاوية لما عندي من مرجع عنه يومذاك فرد علي برسالة اخوية جميلة لا زالت بين يدي صدرت عن مجلة الكتاب مؤرخة في ١٩ نوفمبر سنة١٩٤٦م وختمها بقوله المجامل المؤدب ، «ويحلولي ان اختم كلمتي باسداء وافر الشكر على ما احطتموني به من حسن ظن وثنـاء ».

وكانت هذه اول رسالة منه الي ، فيها تواضع الفضلاء ، وسماحة الادباء ، ورقة الشعراء .

اهتمت « الكتاب » بالعراق واتجاه التاليف فيه وحركة النشر ، والشعر والطباعة في عالمه ، وخصته بحقل يضم شتات اخباره . ومن طرائف الاخبار التي وردت في الجزء الاول عنه :

تاليف لجنة للترجمة والتاليف والنشر في وزارة المعارف العراقية ــ يومذاك ــ وتشجيع المؤلفين والمترجمين ونشر المخطوطات واحياء التراث . كما ورد فيها خبر عن تكليف المرحوم الكاتب الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني الذي انتدب في العراق استاذا في ان يضع كتابا عن نهضة العراق الحديثة ، واثر محافل العلم والادب في تلك النهضة، والغريب في الامر ان الكتاب يطبع في القاهرة على ورق ارسل من العراق .

واشارت من صدور مجلة الاثرية لاول مرة في العراق، وهي مجلة «سومر» برعاية الاستاذ الدكتور المرحوم ناجي الاصيل ومشورة «المستر سيتون » الفنية .

ولقد امدت الاقلام العراقية مجلة « الكتاب » بمادة نثرية وشعرية قيمة وكان من المساهمين فيها نثرا على سبيل المثال الاساتذة الكرام :

الدكتور مصطفى جواد، الشيخ محمد رضا الشبيبي، رفائيل بطي ، عبد الرزاق الحسني، سليم طه التكريتي، الاب بولس بهنام ، كوركيس عواد ، ميخائيل عواد، يوسف يعقوب مسكوني .

ومن المساهمين شعرا الشعراء الافاضل: ابراهيم الوائلي ، خالد الشواف ، السيد محمود الحبوبي، ضياء الدين الدخيلي .

هذا وعندما اقيم الاحتفال العالمي بالشيخ الرئيس الفيلسوف ابن سينا واخذت العراق حصتها منه من ٢٠ــ ٢٢ مارس سنة ١٩٥٢ . حضر الشاعر الغضبان ذلك المهرجان وكان مساهما فيه بقصيدة « النفس» التي هي معارضة لعينية ابن سينا ، وشوقي امير الشعراء ومما جاء منها قوله عن العراق ومجده العلمي ، وعزه الادبي ومنزلة بغداد في التاريخ ، وتلهفه لرؤياها :

بغداد جئت اليك يحدوني الهوى ... واعود منك وحب (بغداد ) معي
بلد الهوى والشعر ثم عليهما ... حدق المها والسحر في المتربع
ومدينة الحسب العريق تسربلت ... عبر العصور بسؤدد لم يخلع
ومنارة للعلم بث شعاعها ... نور الهدى للمدلجين اللُّمَّع
بغداد سحر للفؤاد ونشوة ... للفكر واسم للفخار الممرع

ومنهـا :

## مصير

اذا كنت مظلوما فكن انت ظالمي     اذا كان في الحالين لا بد من ظلمي
فقد كنت ارجو في رحابك موضعا     الوذ به من هم ليلي ومن يومي
لـدن كان ليلي اسود الحظ حالكا     ومذ كان يومي في جحيم من الهم
فالفيت نفسي في جوارك مبعدا     والفيت قلبي بعد جورك في سقم
وكنت اذا طافت بنفسي رغيبة     تباعد ما بيني وبين الذي ارمي
والقاك تبغي ، ان تمنيت بغيـة     وكل الذي ابنيه يهوي من الهدم
وكنت ، وما زلت الذي كنت ،طالما     هواي نضير الغصن انداؤه تهمي
حنانيك يا من كنت ،بل انت لم تزل     طلا بي،واين اضحى سرابامن الوهم
وكنت على قرب المزارات نائيا     وصرت قصيا في لقاء وفي حلم
فان كنت مظلوما ، فكن انت ظالمي     ولا تخش باسا من عتابي ومن لومي

القاهـرة     احمد عبد المجيد

انا من وقفت على علاها مقولي     وعلى هواها صبوتي وتشيعي
بغداد اسعدني الزمـان بزورة     هي مرتجى قلـب بحبك مولع

ثم يطوف بخيال الشاعر ويقـول :

البلت امتع نـاظري ومهجتـي     بروائـع من سحـرك المتنوع

ومنهـا :

واقول ايـن ( الموصلي ) و(معبد)     سجعا واين روى الحديث(الاصمعي)
وباي كرم ام بـاي خميـلة     كان ( ابـن هاني ) يستقل ويرتمي
واطالـع الدارات اسالهن عن     قصر (الرشيد) عسى يجبن تطلعي
هل كان غير عرنية لضيافـم     صيد وافق للنجـوم الطلـع

ثم يتلفت الى الشرق والغرب وحالة كل منهما في الماضي فيقول :

في حين كان الشرق ظئر حضارة     والغرب طفلا في كفالة مرضع
سرر من المجد الاثيل تصدعت     وثوى الفخار بركنها المتصدع
مجد ورثناه وقمنا بعده     نبني الطريف على التليد الاتلع
هي خطوة للشرق ما ان يخطها     حتى يؤوب بعزه المسترجع
ويشيد للانسان اروقة العلى     ويرد للسارين آية يوشع

كان الشاعر عادل الغضبان « يستخلص المعنى الرفيع من الشيء الوضيع » على حد تعبير ( غوته الالماني ) والذي استشهد بقوله في احدى مقالاته في الكتاب .

اما الشعر عنده ، فكانت المناسبة تتصيده حيث نراه ينظم المعاني الرقيقة الجامعة بين حسن الديباجة العربية واصالتها ، وبين افكار الحضارة القديمة والمدنية الحـاضرة .

اضافة الى غيرته على امجاد اللغة العربية وعروبة الفاظها ومعانيها ، بحيث نراه يذود عنها بقوة وضراوة وبحماس ونبل ... كما انه لم ينس يوما في اكثر ما تكتبه وطنه مصر والعالم العربي جميعه ، وما كان يتمناه للعرب من حرية وامن وسعادة ورقي .

ولم تكن المجلة التي اشرف على سيرها وتحريرها واخراجها تتسع لكل ما كان يريد قوله من آراء ، وبدائع وتعريف واصوات ونقد . وهي التي استمرت من عام ١٩٤٥ ــ ١٩٥٣ وفي كل سنة تصدر بعشرة اجزاء عامة وخاصة ، في محتوى قيم وفي مظهر رائع وبثمن زهيـد .

ان عادل الغضبان شجرة طيبة زكية ، تركت وراءها غراسا من الفيض الادبي الجميل ، والاسلوب البياني البديع . وهو ان لم يخلف لنا الا بعض المؤلفات والمسرحيات الصغيرة . الا ان مجلة « الكتاب » وحدها باشرافه عليها ، ومساهمته بجميع اعدادها « كاصوات واصداء » و « سحر الشرق » و « صور وعبر » و « دواوين » وغير ذلك ، من الشعر والنثر ، والمادة الفنية بكل جديد مبتكر ، ونقد نزيه . هذه الثروة تعطينا المثل السامي لذلك القلم الذي لم يشن مداده حقد ، ولا ضغينة ، ولا كبرياء . وعندما يؤرخ الادب العربي المعاصر في مصر ، وسورية ولبنان ، وتدرس جماعة الادباء ، يكون عادل الغضبان في مقدمة الركب من الطلائع الاولى .

اما شكر السيدة الجليلة والاخت الكبيرة الادبية وداد سكاكيني وكتابتها عنه ، والعلامة المؤرخ الصديق الأستاذ الدكتور يوسف اسعد داغر وترجمته له ، في مصادر دراسته الادبية وغيرهما من الصفوة المخلصة ، و « الاديب » الزاهرة ، وقلم شاعر الاهرام الاستاذ الجليل الاخ محمد عبد الغني حسن الذي سيضع عنه كتابا او دراسة ، فذلك من نبل الوفاء ، وشهامة الطيبين من الادبـاء .

بغداد ــ كلية الآداب     محسن جمال الدين

# في الغربال الجديد

## ١٩٢٣ – ١٩٧٤

**بقلم وداد سكاكيني**

* * *

بين الغربال القديم والغربال الجديد للناقد الكبير الاستاذ ميخائيل نعيمة زهاء نصف قرن من الزمان ، فهل حمل الثاني جديدا ومفيدا لادبنا المعاصر ؟

لقد جاء في هذه المدة المديدة جيل بعد جيل وانفجرت ثورات وحروب في الشرق والغرب ، وتلاقت ثقافات وفنون فنجم من هذا التلاقي والانفجار وعي فكري في الطليعة العربية تواق الى تحرير الادب من التكلف والتقليد في التعبير والى تغيير المقاييس النقدية والقيم في المجتمع ، وقد اخذت اسباب التطور والتجديد تشيع في حضارة العلم والحياة مع شيوع النضال للحرية والاستقلال ، وكانت معارك النقد والجدل بين ادباء الثورة على القديم تشتد حينا ، وحينا تتسع وتمتد من مصر الى البلاد العربية ، وفي الوقت نفسه كانت تتطاير شرارات في ادب المهجر الذي سبق الى الانطلاق ، وقد دل نتاجه في الشعر والنثر على تجديد في اساليبه ومعانيه تلقاها الجانب البعيد بالوجوم والحذر .

وفي الربع الثاني من هذا العصر تعددت المعارك الادبية بين المجددين والمحافظين وحول القديم والجديد والسكونية واللاتينية والحرية والرجعية ، فاسفر هذا العراك العنيف عن هبة فكرية وقومية لم يشهد مثلها العالم العربي من قبل ، وكان الناقد الكبير الاستاذ ميخائيل نعيمة واقفا من بعيد على اقلام الذين شاركوا في الحركات النقدية بمقالاتهم وآرائهم وقد عرفوه في كتابه «الغربال» الذي نشر في مصر عام ١٩٢٣ وعرف بين صحبه وقرائه باتجاهه الى النقد منذ كان مغتربا وبعد عودته الى لبنان ، لكنه لم يعبأ بثورة النقاد وتنافس الادباء في التطلع الى مذاهبهم او مواقفهم في تطور الفكر والنقد ، بل بقي في عزلته سادرا في تاملاته وهو الذي بدأ حياته الادبية ناقدا ثائرا ، وكان بين ادباء «الرابطة القلمية» في نيويورك منصرفا الى نقد الادب والادباء على طريقته التأثرية ومزاجه في الرأي والحكم ، والى الدعوة لادب ينبع من الحياة لا من التراث وكانت اقلام الطليعة من المجددين في مصر تتفجر نقدا صاخبا للبارزين من الشعراء والكتاب في ايامهم ، على ان اقواها اثرا وابقاها ذكرا كان قلم الناقد الثائر عباس محمود العقاد الذي تعاهد مع اثنين من اصدقائه جمعا بين الثقافتين العربية والغربية هما المعلمان الاديبان عبد الرحمن شكري وبراهيم عبد القادر المازني على ان يقوموا جميعا بالدعوة والقدوة لادب صادق جديد في صوره ومعانيه ، وبهدم الاسوار التي بنتها شهرة الكبار من الشعراء والكتاب على ضفاف النيل ، فبدأ العقاد نقد شوقي في شعره التقليدي كما قال وتبعه المازني في نقد المنفلوطي وتعبيره اللفظي كما قال ، ومن قبل استهزأ بشعر حافظ ابراهيم وكان الشاعر شوقي والاديب المنفلوطي من احب الادباء الى الشعراء واقربهم الى الحكام والزعماء ، فلما قرأ اديب المهجر ميخائيل نعيمة مقالة العقاد في هدم شوقي طاب له ان يؤيد الناقد في هذا الهدم بمقال تهكمي حمل فيه على قصيدة شوقي في الاندلس ، وكانت مجلة « الهلال » جعلت عنوانها « درة شوقية » فقال نعيمة « لقد سمعت بدرر شعرية كثيرة ولما اعملت فيها طرف المبرد وجدتها صدفا لماعا ، ولما فحصتها وجدتها خزعبلات عروضية تبهر البسيط وتخدع المغفل » .

« وفي القصيدة امثال كثيرة من هذا الوصف السطحي الذي لا يحرك فكرا في راس ، ولا يرسم صورة في مخيلة ، ولا يهيج عاطفة في قلب غير ان فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضائعا بين ابيات جاءت حشوا فبان كبطاقة (١) زهر في حقل من العوسج » (٢) .

في ذلك الحين تعززت « القرابة الفكرية » (٣) بين نعيمة والعقاد على تباعد الاقطار ومن كانوا وراء البحار ، وكان للناقد المؤيد ميخائيل نعيمة مقال كريم في كتاب « الفصول » لعباس محمود العقاد ، ظهر هذا الكتاب النقدي عام ١٩٢٢ وفيه مقال العقاد في نقد « المواكب » لجبران خليل جبران وكان منشورا من قبل في جريدة « الاهالي » المصرية عام ١٩٢٢ ولولا هذه الصلة السابقة النافعة لما اتيح للمقالات النقدية النعيمية التي كان ينشرها كاتبها في « الفنون » و « السائح » بنيويورك قبل ان تظهر في مصر عام ١٩٢٣ وبمقدمة وفية كريمة من العقاد الذي كان في حدة الثورة على ادب الذين تقدموه سنا ومجدا يشتد قلمه بانصاره وصحبه .

وقد لقي « الغربال » كتاب الناقد المهجري ميخائيل نعيمة اهتماما بآرائه المبكرة الثائرة ومقالاته العنيفة ولا يزال هذا الكتاب مرجعا للباحثين في تطور النقد ومقاييسه في ادبنا الحديث ، ودليلا على ادب الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة في منازعه النفسية والفكرية .

على ان العودة للغربال القديم تقتضي الاشارة الى قول مؤلفه : «امغربلة سنة من السنن التي تقوم بها الطبيعة ، والطبيعة اكبر مغربل ، الا تراها في الشتاء تكفن الارض بالثلوج وتفجرها بالغيث لتحفظ من الفساد ما في رحمها من جراثيم الحياة ، واذ يأتي الربيع يحول

الثلج ماء وترسل ما زاد منه عن حاجاتها الى البحور »(٤).

واقتداءا بهذه السنة الطبيعية حمل الاديب الكبير ميخائيل نعيمة غرباله الاول الذي صنعه من « قوة التميز الفطرية » (٥) وشعوره بالتفوق والاقتدار ومن المزاج الذاتي الصريح ، والقى فيه متمرسين بالادب وناشئين واخذ يهزهم في كتبهم ودواوينهم حتى دوخها وسقط منها ما سقط وبقي نقده ينفضها بعنف وشموخ دون ان تأخذه رحمة بفرحة المبتدئين او كرامة المتمكنين .

وبعد عشر سنوات من هذه الغربلة الثقيلة ضيق الناقد الكبير ميخائيل نعيمة ثقوب غرباله حتى بدا كالمنخل والقى فيه صديقه جبران بعد موته وصديقه الريحاني ناخلا باخسا قدرهما ، وكان يتنفس طويلا كلما فرك بكفه حياة جبران حتى تعبت من الهز والفرك فطرح الناقد غرباله بعيدا وجلس مستريحا ، على أن هذه الجلسة قد طالت وتعددت كان فيها صاحب الغربال عاكفا على التأليف والتأمل في الكون والحياة وبعد بضع سنوات فاجأ القارىء الاجنبي والعربي بكتابه الرائع « مرداد »(٦) وكان ظهوره عام ١٩٥٢ وفيه الفجاءة الأولى التي بغتت ادباء النقد في الدعوة النعيمية لطرح النقد وتقطيع الغرابيل ففي الصفحة ٦٥ و ٦٦ من « مرداد » قال المؤلف :

« اياكم والغربلة يا رفاقي لان كلمة الله هي الحياة والحياة هي بوتقة ، كل ما فيها وحدة لا تتجزأ ، وحدة متوازنة ابدا » .

« اياكم والغربلة يا رفاقي فمتى اقلعتم عنها وجدتموكم متغلغلين في كل شيء ومحتضنين كل شيء ، ورأيتموكم عمالقة لا تسع الواحد منهم كل غرابيل الدنيا » .

« اياكم والغربلة يا رفاقي ، اطلبوا اولا معرفة الكلمة ـ كيما يتاح لكم ان تعرفوا كلمتكم ، فانتم اذا ما عرفتم كلمتكم القيتم بغرابيلكم في النار .. »

وفي الصفحة ٢٦١ من « مرداد » قال المؤلف ميخائيل نعيمة : « لا تحاولوا استئصال الشر من العالم حتى الاشواك والاعشاب البرية تصلح سمادا للارض ».

وفي العام ١٩٥٦ كانت الفجاءة النعيمية الثانية في محاضرة الناقد الزاهد الاستاذ ميخائيل نعيمة الذي كان مدعوا في وفد لبنان لمؤتمر الادباء في بلودان (٧) فجاءت محاضرته عجيبة في آرائها النقدية المتناقضة وفي الدعوة لنبذ النقد ، وكان موضوعها « الاديب والناقد » فقال نعيمة الاديب الناقد في مستهل محاضرته : النقد عمل الحياة الدائم ، وختمها بقوله : والحياة كفيلة بغربلة ما نقول ونفعل ، فلها وحدها القبول الفصل والحكم الاخير.

ولا بد من ذكر سطور من قول نعيمة : لست اريد ان اقلل من قيمة النقد وعمله فاقول : ان النقد دعامة لا يقوم الادب الا بها وعليها ، ففي استطاعتنا ان نؤلف الروايات والاقاصيص والمسرحيات وان ننظم القصائد ونحبر المقالات وان نخطب في شتى الموضوعات ثم ان نترك امر تقدير ذلك للقارىء والناظر والسامع وللزمان ، فان اخطأ تقدير القارىء والناظر والسامع لن يخطىء تقدير الزمان في المدى الطويل » .

« الا ان من الناس من يقراون ولا يفهمون كل ما يقراون او يفهمون عكس ما يقراون فيمرون باللؤلؤة الفريدة وكانهم يمرون باكرة من زجاج فيحسبونها لؤلؤة فريدة ، ان لمثل هذا قام النقد والناقدون ».

« ان البناء لا يقوم بالحجارة الكبيرة وحدها ، بل لا بد مع الكبيرة من صغيرة ولا بد من الطين ، والصورة لا تتم بالنور وحده بل لا بد مع النور من ظل ».

« وهكذا الادب يستحيل ان يكون ادب عباقرة لاغير ، بل لا بد مع العباقرة من انصاف عباقرة ومن كتاب وشعراء ما زارتهم العبقرية حتى في الحلم ولا لمستهم بنفس من انفاسها ، لا بد مع المبدعين من مقلدين ومع النسور من خنافس ومع البلابل من غربان ، واذ ذاك فما هو عمل الناقد ؟ »

« اجل ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو ان يعرض نفسه في عرض الكلام عن غيره ، فقد يقلقه اشد القلق ان يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء فيثور ثائره ولا يهدأ باله حتى يعلن للملأ انه ارسخ قدما في علم النحو من مؤلف الكتاب وان اللام لا تجوز في هذا المقام ، وتجوز الباء » .

« اليس من الافضل له وللادب ان يصرف مواهبه في الانتاج وان يهتم بنقد ما ينتج بدلا من الاهتمام بنقد ما ينتجه الغير ؟ » (٨)

وما كاد الناقد القديم ميخائيل نعيمة ينهي محاضرته بالدعوة لاهمال النقد والاستهانة بالناقد حتى ضج الادباء وكنت في الوفد السوري اشفق من عجب تحول الى غضب ، وقد نهض الاديب الراحل رئيف الخوري فرجوت ان يتلطف برده وتعليقه ، وكان رئيف يرحمه الله مهذب الحوار يقدم الحجة تلو الحجة في منافع النقد الادبي ومشاركته في حركات التحرر والتجديد في ادبنا الحديث فمما قال :

الم يسهم كتاب « الغربال » في صرف الكثير من ادبائنا المحدثين عن المعاني والقوالب التي اصبحت في

---

( ١ ) طاقة لا بطاقة ( ٢ ) ص ١٤٨ و ١٤٩ من الغربال ( ٣ ) من مقدمة العقاد ص ٦ ( ٤ ) ص ٢٢ و ٢٣ من الغربال ( ٥ ) من مقدمة المؤلف ( ٦ ) كتبه بالانكليزية ثم نقله الى العربية ( ٧ ) اقيم المؤتمر الادبي الاول في « بيت مري » بلبنان عام ١٩٥٤ بدعوة من جمعية اهل القلم وبرئاسة الشاعر المحامي صلاح لبكي . ( ٨ ) ص ٢٠٢ في المرحلة الثانية عام ١٩٦١ ( ٩ ) مؤتمر الادباء العرب الثاني المنعقد في دمشق بين ٢٠ ـ ٢٧ ايلول ١٩٥٦ ص ٣٥ ـ ٤٥ .

# لبنان

## زكي قنصل

انشدت هذه القصيدة في مهرجان اقامته «ندوة الادب العربي» في بوانس ايرس احتفالا بعيد لبنان الوطني

★ ★ ★

للارز رب من الاخطار يحميه ... فيا عبيد الخنى لا تطمعوا فيه
الله قد طهر الفردوس من دنس ... فكيف يسرح شيطان بواديه
لاصدر احنى على الملهوف منه،ولا ... جناح اندى على آمال راجيه
لكن اذا ارتاب في نيات قاصده ... لم يبق قطرة ماء في سواقيه
كم غاصب ظنه سهلا لآكله ... شلت يداه ولم يبلغ مجانيه
وكم تنازع اعصار شواطئه ... ثم استحال نسيما في روابيه
لم يـزه بالصارم البتار يرفعه ... على الرقاب يموج الموت في فيه

---

مصرنا محنطات ميتة ؟ بلى !

الم يسهم كتاب « في الادب الجاهلي » في تحرير الفكر العربي من نظرة التقديس لكل قديم منقول عن السلف ؟

ولا يزال العجب في خواطر الادباء الذين استمعوا لمحاضرة نعيمة وتعليق الخوري عليها ، ولولا هالة الوقار التي كانت تحف بشخصية الاديب الكبير ومكانته لما هدأت النفوس الثائرة .

اما العجب الابقى في الخواطر فكان في قول المرتد عن النقد والزاهد فيه بكتابه « سبعون » (٩) بعد محاضرته في بلودان : « ولا ازال اقول « ان النقد خلق وابداع وليس مجرد استحسان واستهجان » فضاق الادباء الذين تتبعوا الاستاذ نعيمة في آرائه المتناقضة وتحيروا في الاسباب.

ويبدو ان الشوق القديم الى غرباله القديم كان يعاوده من حين الى حين مستهينا بوعي القراء من المثقفين والادباء ، فجمع منذ عامين مقالات نقدية ورسالات في كتاب سماه « الغربال الجديد » ، وكان الاستاذ نعيمة نشرها في الصحف ، فحسب بعض القراء انه غير رايه وطريقته في النقد لكنه خيب حسبانهم ، فقد مضى في كتابه هذا على طريقته الذاتية ولم يعبأ بحياة النقد ومذاهبه وتطورها ، ولم يحدث قراءه عن عودته الى ما نهى عنه بل عاد في « غرباله الجديد » بالذكرى الطيبة لبعض الذين اسفهم في نقده القديم فنوه بتجديدهم ، منهم الشاعر رشيد ايوب ابن بلدته وصديق غربته ومنهم امين الريحاني الذي وصفه بالجمل الامور لانه استقطع طعنه في جبران بعد موته ولم ينس خليل مطران وايليا ابا ماضي من كلمات ثناء .

وفي « الغربال الجديد » صفحات مشرقة باعجاب نعيمة ورضاه لشخصيات اجنبية فنية وفكرية لم يجد في سيرتها وآثارها اي غبار او عثار ، اما الشخصيات الادبية العربية فلم تسلم من وخزات ونفثات كشأن امثالها في « الغربال » القديم ، وفي « الجديد » مجاملات بادلها بالمعروف والوفاء وردها باحسن منها ، وكان من الحق والخير ان لا ينسى العقاد في مقال منه اسوة بامثاله ، فهل علي من حرج اذا تساءلت عن الفرق بين الغربال القديم والغربال الجديد للناقد الاديب الاستاذ ميخائيل نعيمة ، واين تجارب الخمسين عاما في تطور النقد والنقاد ؟

انها لظاهرة محيرة في هذا التناقض الذي يتطلب تجردا للبحث والتمحيص في اسبابه وتماديه .

دمشق ... وداد سكاكيني

بل بالمحبة تسري في ملاعبه    فيعشب الصخر من زهو ومن تيه
لبنان مدرسة للشعر وارفة    تقاصرت (( حملايا )) عن ادانيه
لبنان ليس ـ كما يدعونه ـ جبلا    يفيض بالوحي باديه وخافيه
وهيكل للندى والحب مؤتلق    ما جنة الخلد الا من اساميه
ساح الجمال فلم يستهوه بلد    حتى رآه فراعته مغانيه
فاختاره دون اوطان الورى وطنا    تطيب حتى البلوى لياليه
اعجوبة الحرف سحت من عوارفه    لولاه لم تخرج الدنيا من التيه
لتشهد الضاد لما انهار حائطها    ان العلاج اتاها من مشافيه
لم تلف الاه بين الاهل (( معتصما ))    يحمي حماها ولا ينفك يحميه
للشمس برج عجيب في خرائبه    الفجر يهدمه والليل يبنيه
وللدراري على تلاله مسرح    آمنت تالله ما احلى دراريه
فيروز في تاجه الوهاج لؤلؤة    افدي باكثر من روحي لآليه
واخطل الشعر في قيثارة وتر    غنى فاسكرت الدنيا اغانيه
سارت قصائده كالشمس وانطلقت    تطوي الزمان وتستجلي مآتيه
في ظل ارزته صاغ الامير ، ولم    يكفر بنعمته ، احلى قوافيه
بشت له (( جارة الوادي )) فالبسها    ثوبا من الشعر لا تبلى معانيه
وشارك الفن في تخليد فتنتها    تبارك الفن ما اسخى اياديه

يا من يعيب على قلبي صبابته    هيهات عن واجب العرفان تثنيه
احب لبنان لا خوفا ولا طمعا    نزهت حبي عن زيف وتمويه
لكن لان له دينا ولي شرف    يسومني ان اسهيه واقضيه
يغري اللئيم بمال او بفانية    اما الكريم فبالمعروف تغريه
نزلت مغناه فالتفت ملائكة    حولي تقاسم قلبي ما يعانيه
فزال غمي ، وما زالت بشاشتهم    تغلو بتفريج آلامي وترفيهي
يا فتية الارز لا شل الزمان يدا    تمر بالطلل البالي فتحييه
اقول ، والدمع في عيني يشكركم    جرح الشقيق،شقيق الروح يشفيه
ان يطوني البعدفالاشواق تنشرني    الله في نازح لا بعد يطويه
يا اهل لبنان لا تزهو بجنتكم    لنجتن بالروح فرع من اهاليه
نهفو اليه كما نهفو الى بردى    وترتوي منه ، بل بالدمع نرويه
الشرق رغم اختلاف الدار عائلة    يحلو لقاصيه ما يحلو لدانيه
لا تفتحوه لشذاذ الورى وطنا    هل يمنع الضيم عن بيت حراميه
ارى الجنوب يعاني الف داهية    لا تتركوه غريقا في دواهيه
السيل قطرة ماء ، ثم تعقبها    سحابة ... ثم تستشري نوازيه
اخشى يؤدي اختلاف الراي بينكم    الى ائتلاف النوايا في اعاديه
فوحدوا صفكم تسلم كرامتكم    وتدفعوا عن حماكم شر غازيه
يا جارة الارز لا تقسي على كبدي    حلفت بالارز ما يبكيك يبكيه

بوانس ايرس ـ الارجنتين    زكي قنصل



الدكتور محمد مهدي البصير

شاعر من العراق

# الشيخ محمد مهدي البصير

١٣١٣ هـ - ١٣٩٤ هـ

١٨٩٥ م - ١٩٧٤ م

بقلم عبد الرزاق الهلالي

* * *

توطئة : ان هذا الشاعر (١) الذي نقدمه اليوم ، هو شاعر ثورة العشرين ، في العراق ، وخطيبها ، واللسان المعبر عن اهدافها ومراميها ، لحقه بسبب مواقفه الوطنية ، ما لحق اخوانه ، احرار العراق ، من سجن ونفي وتشريد ، على يد السلطة البريطانية الغاشمة ، ولكنه بالرغم من كل ذلك ، لم تلن قناته ولا خمدت همته ، بل على العكس من ذلك ، واصل السير في خطه الوطني ، عاملا مع اخوانه قادة المعارضة ، من اجل استقلال بلاده ، استقلالا غير منقوص !

وقد بقي يعمل في ميدان النضال السياسي ، فترة ليست قصيرة ، حتى اذا قامت في العراق دولة جديدة ، حملته بعض العوامل على الابتعاد عن العمل السياسي ، فانصرف للتدريس في « جامعة آل البيت » ، فلما الغيت هذه الجامعة ، وقررت الحكومة ايفاد بعثة من الطلاب للدراسة في مصر ، على حساب وزارة الاوقاف رغب في الانضمام اليها ، وحين ضم الى هذه البعثة ، سافر الى القاهرة ، وبعد ان بقي فيها سنة واحدة ، اوفد الى فرنسا للحصول على شهادة الدكتوراه ، في احدى جامعاتها ، وبعد ست سنوات عاد الى بغداد ، دكتورا في الادب ، فعين استاذا للادب العربي في كلية « دار المعلمين العالية» فبقي في منصبه هذا احدى وعشرين سنة ، احيل بعدها على التقاعد لبلوغه السن القانونية .

فمن هو هذا الشاعر يا ترى ؟!

محمد مهدي البصير : هو محمد مهدي بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الحسين ، ولد في مدينة الحلة في غرة المحرم سنة ١٣١٣ هـ - ١٨٩٥ (٢) فنشأ في كنف والديه ، طفلا سعيدا ، الا انه لم يكد يبلغ الخامسة من عمره حتى فقد بصره نتيجة لاصابته بمرض الجدري ، فلما شب وكبر ، لحقه ، لقب « البصير » . وحين بلغ مبلغ الصبيان ، ادخله والده ( كتاب ) الشيخ حسين البصير ، الذي كان عالما فقيها ، حافظا للقرآن ، وشاعرا في الوقت نفسه . وفي هذا الكتاب ، اخذ الطالب البصير ، يتلقى علومه الدينية والعربية ، وظهر فيه ، ميله للشعر ، وطربه لسماعه !

في رحاب القزويني : ولما اتم دراسته في هذا الكتاب ، بنجاح ، بدأ يدرس النحو والصرف وجانبا من الحديث والفقه ، على جماعة من الاساتذة ، كان اعظمهم اثرا فيه المغفور له السيد محمد القزويني ، فقد ظل في رحاب هذا السيد الجليل ، نحوا من ثلاث سنين ، يدرس عليه ويقتبس الشيء الكثير من علمه وفضله وادبه ! وفي هذا المحيط العلمي والادبي ، وجد البصير ، نفسه مدفوعا لاستيعاب ما يقرأ له ، من كتب التاريخ والادب والدين والاجتماع ودواوين الشعر ، وهي كثيرة في مكتبة آل القزويني في الحلة . وزاد ميله في هذه المرحلة من حياته لحفظ شعر فحول الشعراء ، لاسيما شعر المتنبي والشريف الرضي ، ومهيار الديلمي ، وشغف في الوقت نفسه بشعر الشاعر الكبير السيد حيدر الحلي .

تجارب في نظم الشعر : وقد دفعه ميله الى الشعر ، الى ان يجرب حظه ، وهو في سن مبكرة ، الى ممارسة نظمه ، بالرغم من عدم امتلاكه لعدته بعد ، وقد حدثنا عن بعض هذه التجارب الطريفة قائلا (٣) .

« كان السيد حيدر الحلي ، استاذي للمرة الاولى ، وانا في حدود العاشرة من عمري - ان لم اخطيء - وذلك يوم بدأ لجدتي ، ان تعرب عن سوء ظنها بي - وهي محقة في ذلك تماما - وان تقول لمن حولها مشيرة الي :

---

(١) نال شهادة الدكتوراه من فرنسا سنة ١٩٣٧

(٢) توفي يوم ١٧ - ١٠ - ١٩٧٤ م ٣ شوال ١٣٩٤ هـ «الاديب»

(٣) راجع مقال بقلم الدكتور البصير في عدد جريدة اليقظة الصادر يوم ١١ - ٢ - ١٩٤٦ وما بعده بعنوان « السيد حيدر الحلي - عبقريته»

انه شديد الصلف ، كثير العبث ، لا يسمع نصحا ، ولا يحفظ درسا ، وما اظن انه سيكون في يوم من الايام كابن خالته ( حسن ) في ذكائه وشعره (٤) !

فقلت في نفسي : انها تفضل ابن اختها علي ، لانه شاعر ، كأن الشعر شيء صعب المنال انني سأكون شاعرا في هذه الليلة !

وجاء الليل ، فاستعرضت ، شعر السيد حيدر الحلي ، الذي احفظه ، واخترت منه ( فائيته ) التي يرثي بها ابا الشهداء ، والتي مطلعها :

لتاوي لأي الجيد ناكسة الطرف ... فما شمها بالطف موشومة الانف

فعارضتها بكلام ، لو سمعه السيد حيدر ، لاستغرق في ضحك شديد !! وفعلت مثل ذلك في الليالي التالية، فاجتمع لدي شيء كثير من هذا الكلام الصبياني . وتلوت ( شعري ) على اترابي ، فاستغرب بعضهم ، وسخر منه البعض الاخر ، ولكن لم احفل باستغرابهم ولا بسخريتهم».

وروى الدكتور بعد ذلك ، ما كان لجده من اثر في صقل موهبته الشعرية اذ قال :

« كان السيد حيدر ، مصدر رزق لي، في نحو السابعة من عمري ، يوم كان جدي الشيخ عبد الحسين رحمه الله ، يرويني شعره ، ويعطيني قرشا واحدا عن كل عشرة ابيات احفظها حفظا جيدا . وكنت كلما اشتدت حاجتي الى القروش ، اتيت الى الشيخ ورجوته ان يحفظني كثيرا ، ولم يكن الغرض من هذا الرجاء ، ليخفى على الشيخ ، فكان يضحك منه ضحكا خفيفا ، ولكنه يلبي طلبي ، ويأمرني بالجلوس ، ثم يحفظني ما يتسع له وقتي وحافظتي ، ومما رويته للسيد حيدر في ذلك العهد قوله :

يا دار جائلة الوشاح ... حيتك نافحة الرياح
وسقتك من ديم الحيا ... وطفاء ضاحكة النواحي
كم فيك قد نادمت من ... قمر يطوف بشمس..
وخريدة تختال عن ... ادن تبسم عن اقاح
نشوانة الاعطاف من ... خمر الصبا خود رداح

ومهما يكن من شيء ، فقد بان اثر تلك الرغبة وهذه الرعاية ، بعد حين، اذ لم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره، حتى اصبح قادرا على نظم الكلام المقفى الموزون . وان اول بيتين من الشعر ( المعقول المقبول ) على حد تعبير الدكتور نفسه ، هما قوله :

سلسال ثغرك يا رشا ... لم يبرو منه العاشقونا
وبريقك المعسول فلـ ... يتنافس المتنافسونا

وهكذا ومنذ ذلك الحين ، اخذ شاعرنا البصير يمارس نظم الشعر ويجود فيه ، فلا عجب اذا ما رأيناه بعد عقد من السنين يصبح في طليعة شعراء ثورة العراق الوطنية سنة ١٩٢٠ .

الخطيب المنبري : لقد كان والد البصير ، من خطباء المنبر الحسيني المشهورين في منطقة الفرات الاوسط ، وكان هذا الاب ، يرغب في ابعاد ولده عن حظيرة الشعر والشعراء ، ولذلك سعى لتدريبه على هذا العمل ، وظل ينتظر الفرصة لتقديمه الى الجماهير بهذه الصفة ، وتشاء المصادفة ، ان يضطر هذا الاب الى السفر مع مشيعي جثمان فقيد الحلة الكبير المغفور له السيد محمد القزويني الى النجف الاشرف ، وبسبب هذا الاضطرار قام ابنه مقامه ، خلال غيابه ، بالخطابة في مجالس العزاء ، فأحسن واجاد ، فلما عاد الاب وسمع كلام الناس فيه ، فرح فرحا شديدا ، واصبح « الشيخ محمد مهدي البصير » منذئذ من خطباء المنبر الحسيني المشهورين في الحلة .

في ميدان النضال : لم يكن للشيخ البصير في اواخر ايام العهد العثماني في العراق ، نشاط ملحوظ في ميدان العمل السياسي ، الا ان اعمال الاتراك في الحلة وغيرها من مدن الفرات ، جعلته يشعر بخيبة امله في الدولة العثمانية وبدأ يتلقى اخبار نشاط الشباب العربي في استانبول ،وبيروت وبغداد والبصرة والموصل ، بارتياح، الا انه مع كل هذا لم ينتم في هذه الفترة الى اي حزب سري !

الا انه لما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى ، واخذت الجيوش الانكليزية تطارد الجيش العثماني في العراق ، اعتقد كما اعتقد غيره من العراقيين بان هذه الجيوش الزاحفة ، جاءت ( محررة لا فاتحة ) كما قال قائدها الجنرال مود ! ولكنه عندما تبينت له ولغيره من احرار العراق الاهداف الاستعمارية من هذه الحملة ، لاسيما بعد الاعلان عن اتفاقية « سايكس ـ بيكو » ومن ثم قيام مبدأ الانتداب ، عند ذاك ، قرر النزول الى ميدان النضال في سبيل استقلال العراق ، متعاونا مع بقية قادة الراي في بغداد وكربلاء والنجف .

شاعر الثورة وخطيبها : ولما تم في سنة ١٩١٩ تأليف حزب سري في بغداد باسم « حرس الاستقلال » واخذ هذا الحزب يوسع نشاطه بفتح فروع له في المدن العراقية الكبرى ، كان الشيخ البصير في مقدمة المنضمين له ، حيث فتح هو واخوانه في الحله ، فرع الحزب في الحلة واصبح امينا للسر فيه ، فقام هذا الفرع بنشاط ملحوظ في جمع تواقيع الاحتجاج وكتابة (المضابط) وما الى ذلك من اعمال معارضة لسياسة بريطانيا في العراق . وحين سألت الدكتور عن سبب انتقاله للعمل في بغداد بعد ذاك، اجاب قائلا :.

« لقد وجدت ان الاعتماد على تحرير ( المضابط ) الاحتجاجية ، وجمع التواقيع لا يجدي نفعا ولا يحقق مطلبا ، فقررت السفر الى بغداد للاتفاق مع قادة الحزب على خطة جديدة ، في العمل السياسي ، فلما كلمت المرحوم السيد الصدر ، رئيس الحزب ، في خطتي

---

(٤) والسيد حسن هذا ، هو احد انجال المرحوم السيد محمد حسين دبيع ، وكان شاعرا كفيفا .

القاضية بتاليب الراي العام ضد السلطة المحتلة واثارة الجماهير عن طريق اقامة مجالس التعزية وحفلات المولد النبوي ، وقلت له اني على استعداد للاسهام في هذا العمل الوطني ، وافق عليها !

وعند عرض هذه الخطة على هيئة الحزب ، ووفق عليها ووضعت موضع التنفيذ ، ورحنا نعقد مثل هذه الاجتماعات التي ظاهرها ديني وباطنها عمل سياسي محض ، فاتت هذه الخطة اكلها ، في بث الوعي لدى الجماهير وتهيأتهم للثورة على الانكليز » .

وقد القى الشيخ البصير في الحفلات التي اقيمت في بغداد عددا كبيرا من الخطب الحماسية والقصائد الوطنية فاصبح بحق شاعر الثورة وخطيبها .

بداية المتاعب : ولقد اقلق هذا العمل ، السلطة المحتلة ، لاسيما بعد ان اندلعت نيران الثورة في الرميثة في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ وانتشار لهيبها في العديد من المناطق والاصقاع ، ولذلك اخذت تطارد الوطنيين ، وحين بلغ الشيخ البصير ان رجال الشرطة داهموا صباح يوم ١٢ ــ ٨ ــ ١٩٢٠ بيوت نفر من اخوانه ، قرر الاختفاء من الانظار ، وظل في مخباه قرابة شهرين ! وحين خرج، بعد انطفاء شعلة الثورة ، لم يسكت بل اخذ يكتب المقالات والقصائد الوطنية ، فسيق الى المحكمة بتهمة مفتعلة ، وحكم عليه بالسجن لمدة سنتين وبغرامة نقدية قدرها ( ٣٠٠٠ ) روبية . فلما استانف هذا الحكم تقرر بنتيجته ، انزال الحكم الى سنة واحدة ، والغاء مبلغ الغرامة ، وهكذا اودع السجن الا انه لم يلبث الا شهرين حتى قررت السلطة الافراج عنه ، شريطة ان يقدم كفالة نقدية ، وان يظل تحت مراقبة الشرطة لمدة سنة واحدة !

النفي الى هنجام : وعندما سمحت الحكومة باجازة تاليف الاحزاب ، كان الشيخ البصير ، من بين اعضاء الهيئة المؤسسة للحزب الوطني ، فلما اجيز هذا الحزب يوم ٢ ــ ٨ ــ ١٩٢٢ ، باشر عمله بقوة ضد الاستعمار البريطاني ، وضد الحكومات الضالعة في ركابه . وبات لا يترك مناسبة تمر دون ان يكون له فيها موقف يتفق وهذه السياسة . ومن تلك المناسبات ، الذكرى الاولى لارتقاء الملك فيصل عرش العراق ، فقد قرر هذا الحزب، مع حزب النهضة ، توحيد مساعيهما للمطالبة بحقوق البلاد ، فرفعا بذلك عريضة الى الملك ، وقررا اقامة مظاهرة كبرى ، تقصد البلاط الملكي ، تاييدا لتلك المطالب. فلما وصلت جموع المتظاهرين ساحة البلاط ، رفع الشيخ محمد مهدي البصير على الاكتاف ، فالقى خطابا حماسيا ضمنه تلك المطالب ، وكان كبير الامناء الاستاذ فهمي المدرس واقفا على الشرفة المطلة على الساحة يستمع الى البصير ويسجل ما يسمع ليرفعه الى الملك ( ٥ ) .

وحدث ان وصل في تلك اللحظة ، المندوب السامي البريطاني ، ليقدم التبريك الى الملك ، فلما رآه المتظاهرون هتف احدهم بسقوط الانتداب ، وسقوط بريطانيا ، وقد سمع المندوب هذه الهتافات فلما عاد الى ديوانه وجه الى رئيس الديوان الملكي انذارا شديد اللهجة ، يطلب فيه عزل الاستاذ فهمي المدرس ومعاقبة الخطباء . وهكذا كان فقد اقيل المدرس ، ثم ما هي الا ايام حتى اغلق الحزبان ، ونفي قادتهن الى جزيرة هنجام (٦) وكان شيخنا البصير من ضمنهم !

وقد بقي المنفيون في هذا المنفى النائي حتى يوم ١١ ــ ٣ ــ ١٩٢٣ اذ سمح لهم بعد ذلك التاريخ بالعودة الى وطنهم . فلما وصلوا البصرة قررت السلطة حجز الشيخ البصير فيها ، ووضعه تحت مراقبة الشرطة ، بينما واصل الاخرون سفرهم الى بغداد .

اعتزال السياسة : وبعد ثلاثة اشهر سمح للبصير بالسفر الى بغداد ، فلما وصلها واستقر به المقام فيها ، قرر الابتعاد عن العمل السياسي والانصراف الى الكتابة والتاليف ، وكان اول ما قام به في هذا المجال ، الكتابة عن « تاريخ القضية العراقية » وقد اوضح لنا في مقدمة كتابه هذا الاعتزال بقوله :

« .. وكنت قد عقدت النية ، قبيل نفيي الى هنجام، على وضع كتاب في القضية العراقية ، وعلاقاتها بكل من الحكومتين العثمانية والبريطانية ، لئلا تكون اقل عناية باحدث اثار العراق من مستشرقي الاوروبيين والاميركيين باقدم آثاره ، ولكني لم تشأ الظروف ان تسمح لي بانجاز هذا العمل وقتئذ . ولما عدت من منفاي ، سبرت غور الموقف ، وتاملت مليا في حالتنا السياسية العامة ، فرأيت ان الضرورة تقتضي الخروج من التحزب لاجل غير معين، وعملت بحكم الضرورة ، خاضعا امام عدة عوامل ، كانت ولا تزال بمنتهى القوة والدقة ، ولا يسعني ان اصرح بها مطلقا في الاونة الحاضرة . فلما توسدت المزلة شرعت بمزاولة انشاء هذا الكتاب ! »

في جامعة آل البيت : وفي سنة ١٩٢٥ ، عين الشيخ البصير ، استاذا في جامعة آل البيت التي قامت في بغداد ، لتدريس مادة الفقه الجعفري فيها ، الا انه ما لبث الا قليلا حتى استقال من عمله هذا ، فكلف بعد ذاك بتدريس الادب العربي في الجامعة نفسها ، وبقي استاذا لهذه المادة الى ان تقرر اغلاق هذه الجامعة في شهر نيسان من سنة ١٩٣٠ . والاستعاضة عنها ببعثة من طلاب العلوم الدينية يوفدون للدراسة في مصر على حساب وزارة الاوقاف .

---

(٥) لقد ذكر لي الدكتور البصير ، ان خطة القيام بهذه المظاهرة قد تم الاتفاق عليها بين الملك والحاج جعفر ابو التمن .

(٦) وهؤلاء هم السادة : الحاج جعفر ابوالتمن، حمدي الباجهجي، الشيخ محمد مهدي البصير الحلي، الحاج محمد امين الجرجفجي،رئيس حزب النهضة وعبد الرسول كبه .

في سبيل العلم : وقد وجد الشيخ البصير في قرار الحكومة هذا ، فرصة لا بد له من استغلالها ، فاعرب لرئيس الديوان الملكي المرحوم رستم حيدر عن رغبته في الالتحاق بهذه البعثة ، فلما نقل هذه الرغبة الى الملك ، وافق على مفاتحة الوزارة لايفاده الى القاهرة ، وطلب من رئيس الديوان ان يجعل الغرض من هذا الايفاد ( القيام بتتبعات علمية وادبية ودينية في القاهرة ) . وهكذا الحق البصير بالبعثة وسافر الى القاهرة في مطلع السنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ الدراسية ، فالزم نفسه فيها بتعلم اللغة الفرنسية ، وتعرف من كثب على الحركة الادبية وعلى كبار الادباء والشعراء فيها. الا انه لم يكد ينهي سنة واحدة فيها حتى قدم اليها من بغداد رئيس الوزراء السيد نوري السعيد وهو في طريقه الى السعودية ، فانتهز البصير هذه الفرصة فلما قابله عرض عليه السفر الى فرنسا لاكمال تحصيله العالي في احدى جامعاتها ، فاستجاب لرغبته واخبر الوزارة في بغداد بموافقته على تمويل ايفاد الشيخ البصير الى فرنسا .

البصير في فرنسا : وسافر الاستاذ البصير الى باريس ، فالتحق باحد المعاهد الخاصة بتدريس الادب الفرنسي فيها ، فلما انتهت دورة هذا المعهد لم يكن النجاح حليفه ولذلك قرر السفر الى « مونبليه » للالتحاق باحد المعاهد التابعة لجامعتها وبعد سنتين نجح في ذلك المعهد وحصل على « دبلوم الدراسات الفرنسية » .

مع المستشرق ماسنيون : وحين نال هذا الدبلوم ، قرر العودة الى باريس للدراسة في كلية الاداب في جامعتها ، لاسيما وانه كان قد اعد مسبقا موضوع اطروحة الدكتوراه وهو « الادب العربي قبل الاسلام » . وفي باريس رتب له مقابلة مع المستشرق الفرنسي الذي يعرف العراق جيدا ، « المسيو لويس ماسينيون » وفي تلك المقابلة ، ذكر له انه اعد موضوع رسالته وهو « الادب العربي قبل الاسلام » وفي هذه الرسالة دحض كل ما جاء به الدكتور طه حسين من اراء حول الشعر الجاهلي !

فلما سمع ماسينيون هذا الكلام ، قال له : لا تتعب نفسك بمثل هذا الموضوع في فرنسا ، لاننا نحن المستشرقين فيها ، لا نقر الا ما ذهب اليه الدكتور طه حسين في الادب العربي قبل الاسلام ، فما عليك الا ان تختار لك موضوعا اخر ! وعندما سمع الشيخ البصير هذا الكلام ، احس بالهدف الذي يهدف اليه ماسينيون واضرابه من التشكيك بهذا الادب ، وادرك الدوافع التي دفعتهم الى تأييد كل ما جاء به الدكتور طه حسين في كتابه !

شعر كورني الغنائي : فتجاه هذا الموقف قرر البصير العودة الى جامعة مونبليه ، كما قرر في الوقت نفسه ، اختيار موضوع جديد ، فاختاره هذه المرة من الادب الفرنسي ، ذاك هو « شعر كورني الغنائي » ، فعكف على دراسة هذا الادب والبحث عن هذا الشاعر يساعده في ذلك سكرتيران وزوجته الفاضلة (٧) وبعد محاولات ثلاث ، قبل الاستاذ المشرف فصول رسالته وقدمت الرسالة للمناقشة فحصل بعدها على درجة الدكتوراه بالادب ( بدرجة شرف جدا ) وذلك في يوم ١٧ ـ ١٢ ـ ١٩٣٧ .

العودة الى الوطن : وبعد حصوله على هذه الشهادة عاد الى بغداد فوصلها يوم ٨ ـ ٢ ـ ١٩٣٨ فاستقبل فيها استقبالا حافلا شارك فيه مندوب خاص من رئيس الوزراء ووزير المعارف .

في دار المعلمين العالية : ولم يكد يستقر به المقام في بغداد ، حتى صدرت الارادة الملكية القاضية بتعيينه استاذا للادب العربي في دار المعلمين العالية . وظل يزاول عمله هذا اكثر من عشرين عاما ، احيل بعدها على ( التقاعد ) سنة ١٩٥٩ لبلوغه السن القانونية لذلك !

ومنذ ذلك التاريخ والدكتور معتكف في داره ، مستغلا وقت فراغه في المطالعة واعادة النظر في كتبه الصادرة سابقا ويضع اللمسات الاخيرة لما ينوي اصداره من مؤلفات جديدة .

آثاره المطبوعة والمخطوطة : وقد اصدر الاستاذ البصير خلال الخمسين سنة الماضية عددا من المؤلفات والدواوين الشعرية وهي كما يلي :

١ ـ « الشذرات » ديوان شعر صغير صدر في بغداد سنة ١٩٢٠ .

٢ ـ « دولة الدخلاء » رواية ذات طابع تاريخي صدرت في بغداد سنة ١٩٢٢ .

٣ ـ « تاريخ القضية العراقية » جزءان صدرا في بغداد في ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ .

٤ ـ « المختصر » ديوان شعر صغير صدر في بغداد سنة ١٩٢٥ .

٥ ـ « شعر كورني الغنائي » بالفرنسية صدر في مونبليه سنة ١٩٣٧ .

٦ ـ « بعث الشعر الجاهلي » صدر في بغداد سنة ١٩٣٩ .

٧ ـ « نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر » بغداد سنة ١٩٤٦ .

٨ ـ « عصر القرآن » طبع في بغداد سنة ١٩٤٧ واعيد طبعه سنة ١٩٥٥ .

٩ ـ « الموشح في الاندلس وفي المشرق » صدر في بغداد سنة ١٩٤٨ .

١٠ ـ « في الادب العباسي » صدر في بغداد سنة

(٧) لقد تزوجها بتاريخ ١-١-١٩٣٤ ، وهي تحمل شهادة الليسانس بالادب الفرنسي وتعمل مديرة لاحدى المدارس الابتدائية في مدينة مونبليه !

١٩٤٩ واعيد طبعه سنة ١٩٥٥ .

١١ ـ « خطرات » الجزء الاول طبع في بغداد سنة ١٩٥٣ .

١٢ ـ «البركـان» ديوان شعر سياسي صـــدر في بغـداد سنة ١٩٥٩ .

١٣ ـ « سوانح » الجزء الاول . صدر فـي بغـداد سنة ١٩٦٧ .

هذا وقد ترجم الدكتور رواية « اميل » لجان جاك روسو ونشر قسما منها في مجلة « المعلم الجديد » .

اما اثارة المعدة للطبع فهي :

١ ـ « سوانح » الجزء الثاني ٢ ـ « خطرات »الجزء الثاني ، ٣ ـ « ديوان زبد الامواج » وترجم جزءا كبيراً من رواية ( جريمة سلفستر بونار ) للكاتب الفرنسي اناتـول فرانس لكنه لم يتمها .

البصير الشاعـر : وقد كان مفروضا ان يستمـر شاعر الثورة في العراق ، على الاستمرار فـي استغـلال موهبته الشعرية ، ويقف في مصاف كبار الشعراء فـي هذا العصر ، الا ان تغير مجرى حياته كما راينا ،وانغماره في عالم الدراسة والتدريس والتاليف ، جعله يبتعد عـن نظم الشعر ، اللهم الا من بعض المناسبات والمواقف (٨).

ولما كان للاستاذ البصير دواوين مطبوعة ، فاننـــا سنختار من ديوانه « البركان » ثلاث قصائد ، وثلاثا مـن ديوانه « زبد الامواج » المعد للطبع ، كي يقف القارىء على هذا الجانب من حياته . اما هذه القصائد فهي :

### قرابـــة

بين الحجـاز ومصر اي قرابـــة   نسب العراق لهـا معـا والشام
رضعـت طرابلس العزيزة درهـا   صفوا لمصـا يتلو الرضـاع فطام
ولهـا مراكش والجزائـر تنتمي   وبقلبهـا للتونسـي مقـام
مدت على العرب الكرام جناحهـا   وتشابكت منهم بها الارحـام
فلئن تآلـف جمعهم وتناصـروا   عـادت لهم بجمالهـا الايـام

### لبيـك ايها الوطن

انشد هذه القصيدة في احدى الاجتماعات السياسية التي اقيمت في جامع الحيدر خانة في بغداد ، قبيل اعلان الثورة العراقيةسنة ١٩٢٠

ان ضـاق يا وطني علي فضـاكا   فلتتسع بي للامام خطـاكا
اجرى ثراك دمـي فان انا ختته   فلينبذنـي ان لـويت ثراكـا
بك همت بل بالموت دونك في الوغى   روحـي فداك متى اكون فـداكا
اثراك تضمـن لـي كرامـة مصرع   فيـه ابيـت مجاورا صرعـاكا
هب لي بربـك موتة تختـارهـا   يـا موطني اولست من ابنـاكا
لبيـك يا وطني بكـل ملمــة   فيهـا يجيب المشرقي نـداكـا
لك قد خلقت وفيك ومنك وكل ذا   يقضـي علـي بانني ارعـاكا
لو انني بهواك بالذل مهجـتي   مـا كان ارخصهـا وما اغلاكا
مـاذا علي ومـا خسرت مكانـة   انـي امـوت لكي اصون حمـاكا
قد كان حجرك ما حييت يضمني   فاذا قتلت فقـد سكنت حشـاكا
يا ايها الوطن الحبيب اليـــة   بشـديد باسك في الوغى يعلاكـا
لنشيدن من الجمـاجم والطـلا   حصنـا اشم به نرد نـداكـا

### يـــا علم

انشد هذه القصيدة في حفلةالمدرسة الجعفرية يوم ٢٠ـ٥ـ١٩٢٠ وقد احيل بسببها للمحاكمة ، وصدر الحكم بسجنه سنتين وبغرامة قدرها ٣٠٠٠ روبيـة :

يا علم عش واعش فعصـرك راق   واعـد شموس الشرق للاشراق
ارسلت نورك في الفضا متدفقـا   فملات منـه مطالع الافـــاق
ان عـدت غريبا فعلـك ذاكـر   مهـدا نعمت بـه وانت عراقي

ثم يقول :

انا يا رفـاقي لا اريد سلامـتي   فتذكروني ان هلكـت رفـاقي
ان لـم تعش نفسي الابيـة حرة   فلاسعين بها الى الازهــاق
لاجاهرن بمـا تجن ضمـائري   وليكثرن وسـائل الارهــاق
ولاصعدن الـى الشاهـق نازلا   لثراي اواطا السهـا ببـراق
فضبت لي الاجـداد في اجدالهـا   لمـا شربت الهون مر مـذاق
وغلـى الدم العربي في قـواجبي   فصبغ مجـدي بالدم المهراق

ثم يقول :

يا غايـة الشعب النبيلة فـردي   للقـاك كيف تسابـق العشاق
لنشيدن لـك المدارس جسـرة   ليتـم ما نبغيه   باستحقـاق
ان المـدارس للفنون حـدائق   شجر العقـول بهن ذو ايراق
فتعهـدوا اغراسها وهبوا لهـا   يـا قوم ثـرة نائل دفـاق
ان كـان جمع المال يحسن بالفتى   يومـا فهذا موضع الانفـاق

### نهر الفــرات

هذه القصيدة من ديوان الزبد الامـواج » المعد للطبع :

يا حبذا نهـر الفرات وحبـذا   مـاء به عذب المـوارد صافي
والنخل باسقة كان ظلالهـا   ثـوب عليـه من السكينة ضاف
والطير دائمـة الغناء كانهـا   كلفت بسحر مناظر الاريـاف
والنهر في حلـم كان خريـره   نفس يردده وليـد غفـاف
خلع الاصيل عليـه اجمـل صبغة   فكانمـا وشاه نفـح سلاف
وعلـت كبـار المـوج فيه صغاره   فكـانهن قـوادم وخـوافي
ان راق في سفر الوجـود قصيدة   فمن الشواطىء فيه غر قـواف

ويقول ذاكرا مدينته الحلة:

سلـم على فيحاء بابـل انهـا   فياحة الارجـاء والاكنــاف
تستنشق الارواح عرف نسيمهـا   قبـل انتشـاق شذاه بالانـاف
فلكم نعمت بهـا وقد نشر الحيا   وشـي الربيـع مفوف الاطـراف
الجـو ازهر والربـا مخضلـة   وشذا الحقول يضوع للمستاف
والروض مصقـول الاديم وانمـا   صقلتـه كف العـارض الوكـاف
تتضاحك الازهـار فيه كانمـا   شمتت بدمـع غمـامه الذراف
طافـت بـك الديم الغزيـرة بقعة   اكثرت بـين رياضهـا تطـوافي

### انـا والاطيار

كان الشاعر مصطافا في زحلة ( صيف ١٩٢٩ ) وحين كان يستيقظ في الصباح الباكر ، يلذ له سماع غناء الطيور وخرير المياه في وادي العرائش وقد سجل انطباعاته بهذ ه الابيات وهي من زبد الامواج:

منظـر يملا الفضـاء جمـالا   جسمتـه مطـالع الانـــوار
ونسيـم يمر بالروض لطفـا   فيحيـي عرائـس الازهــار
وخرير في المـاء يعلو ويحـلو   وحفيف يروق في الاشجــار
بت اصبـو لكل ذاك واشـدو   برقيـق الالحـان والاشعـار

---

(٨) لقد استقيت المعلومات الواردة في هذا المقال عن حيـاته ، من الدكتور نفسـه ، خلال الزيارات التي قمت بها له في داره ايـام ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٧٣ و٢٠ و ٢٤ ـ ٦ ـ ١٩٧٣ .

# من حلم الى حلم

وتسائلين ومقلة تهمي ... اترى يقيل هواك لي غمي
اني اخاف غدا يبدد لي ... ما كان بي، في الامس، من وهم
تدنو ، فللاحلام اجنحة ... فاذا نأيت غصبتني حلمي
احييت لي روحا مجرحة ، ... وسللت ما في القلب من سقم
دنياي انت ! رضيت بالدنيا ... تنداح بين اللثم والضم
واحب ان نحيا كما تهوى ، ... اعطيك من روحي ومن جسمي
لكن عهدا لست انكره ... يرنو الي بخاطر جهم
ولقد يهدهد كل خافقة ... في صدري الحاني على همي
ان الصحارى انبتت ارجا ... لما حضنت الموج في يمي

يا رقة الدنيا وروعتها ، ... لا تعتبي ، ان الهوى يصمي
اصفيتك الخطرات باسمة ... هزاءة بالسعد والشؤم
سيأن عندي كل امنية ... اذ انت في اثوابك الشم
ولنحن تربا عفة برئت ... في الحب من ذل ومن لؤم
كل الذي ذقناه من متع ... انقى وابقى من غوى نهم
كنا كما كرم على درب ... يفضي الى درب على كرم
كنا على اسم الحب لقيانا ... لله من حب ومن اسم
افتبعدين ؟ اذن على بعد ... نرتاح من حلم الى حلم
ارواحنا تناى فتدمينا ، ... وجسومنا تناى فلا تدمي

فوزي عطوي



اتفنى ونسمة الفجر تسري ... فتهز الطيور في الاوكار
مستثيراً رنات اوتار قلبي ... وهو عود مقطع الاوتار
بيد ان الجلال في منظر الـ ... كون وسحر الجمال في الاسحار
فاجاني بسكتة قذفت بي ... في فيافي الاحلام والافكار
فلزمت السكون بعد حراكي ... وتركت الفناء للاطيار

ان الحياة لذيذة الاتعاب

وهذه القطعة من ديوان « زبد الامواج » ايضا :

الجو مطلول وناعمة الصبا ... تنساب بين جداول وهضاب
والشمس لا يغشى الفضاء شعاعها ... حتى يجلله رداء سحاب
كسجينة الاستار تسفر خلسة ... وترى الرقيب فتختفي بنقاب
والناس قد ملا النشاط صدورهم ... متزاحمون بجيئة وذهاب
مستعذبون لقطف ازهار المنى ... وخزات اشواك من الاوصاب
فانهض بدورك شان غيرك والتمس ... تحقيق امال لديك عذاب
واستقبل الاتعاب مغتبطا بها ... ان الحياة لذيذة الاتعاب

وبعد : فهذا هو الشيخ محمد مهدي البصير في العشرينيات والدكتور البصير اليوم ، عرضنا للقاريء الكريم جوانب من حياته الحافلة بجلائل الاثار والاعمال ، نرجو ان نكون قد وفقنا في رسم صورة واضحة المعالم عن شاعر ثورة العشرين وخطيبها ، ونامل ان يفيد منها الباحثون والدارسون ، ان كان فيها ما هم في صدد البحث عنه ومن الله التوفيق .

بغداد ... عبد الرزاق الهلالي

قصة

# ابداً في الظل

بقلم احمد عودة

قال «حسونة» لزوجته :

ــ ساجلس الليلة بمحاذاة عباس. وستسمعين صوتي يرن من خلف الستارة .

كذبته بضحكة خافتة . فآمن اكثر من اي وقت مضى بضرورة قلب نظام هذه السهرات اللعينة . تركها تدخل الى قسم الحريم ، ودخل هو رافع الهامة .

الفى المضافة خالية الا من عباس عمد الى حيث يجلس على المتكا الوثير المجلل بقطيفة خضراء جلس بجانبه ، وقبل أن يرتاح في جلسته توافد الرجال ، الفى ذاته ــ وبلا ارادة ــ ينهض ويتخلى عن موضعه، ظل يجلس وينهض ، لم يفطن الى انه غبن، الا عندما استقر به المطاف عند الباب حيث يخلع الرجال نعالهم، تولت عيناه رسم حيرة قاتلة تأكل قلبه ، تحوله الى رماد مجبول بحقد ، طلا به وجوه الحاضرين فرآهم بشعين تنساب من عيونهم وانوفهم ديدان بغيضة . ومع ذلك فهم يضحكون لاتفه نكتة يقولها عباس ، الذي يمثل قمة البشاعة، كذلك يؤمنون على كل كلام يقوله. والنسوة من خلف الستارة ينصتن خاشعات حين يتحدث هذا «العباس» كم من مرة قالت له زوجته ان في احاديث هذا طلاوة وسحر . يتميز عن احاديث الرجال الذين لا تعرف اسماءهم . ثم تزجره على سكوته.

ــ كم اتمنى ان اسمعك تتحدث كبقية الرجال .

وتحدثه عن زهو النسوة بازواجهن وهن يسمعنهم يتحدثون باصوات فيها رجولة وفحولة . فيطل صمته.

ــ السكوت من ذهب .

تقول بتوفز وهي تشير الى قدميها

ــ ولكنه لا يشتري لي بدل هذا الحذاء الخلق .

يحرق غضبها اعصابه ، فيقسم انه سيتكلم ويتكلم حتى يخرس الجميع وفي مقدمتهم عباس.

مرات كثيرة حاول ان يقول شيئا بيد انه في كل مرة يهبط الى جوفه الصمت . فيشتعل قلبه حقدا : يرنته على وجه عباس ، فيراه افعى تلقف البيض قبل ان تفقس منه الفراخ. ويهرب بذهنه الى الفترة التي سبقت عودة عباس ، من سفرته الطويلة . كل شيء كان آنذاك هادئا . السهرات تنتظم في البيوت بالتناوب ومن تعقد السهرة في بيته يجلس في الصدر ومن حوله الرجال.

يتحدث هو او يتحدثون هم وانظارهم منصبة عليه . عدة مرات تسنى له ــ طبقا لهذا النظام ــ ان يتصدر الجلسة ، وان يستقطب انظار الرجال والسنتهم . ولكن منذ ان عاد عباس، هدم هذا النظام ــ لم يهدمه بمعول ولكن بلسانه وباشياء اخرى غير منظورة ، اوحت للجميع ان التنقل بين البيوت مكروه. لم يقل لاحد منهم ان ما يفعلوه خطأ.

حين عاد هرع الرجال الى بيته، برغبة سماع اخبار العالم خارج حدود البلدة ، نظروا اليه يومها كفارس خارق نجا من الاف السهام الموجهة اليه .. احاطت به عيونهم في اعجاب ، فشرع يحكي بصوته القوي ان كيف اجتمع في رحلة العودة بعدة رجال فتسلم على الفور زمام قيادتهم. فتحلق من حوله المبغضون ، فتحداهم بان احضر بيضة وطلب منهم ان يوقفوها على احد طرفيها . ولما فشلوا ــ طبعا ــ اوقفها هو ..

ضج الحاضرون مندهشين.

ــ كيف ؟

وهنا استل من جيبه بيضة وكان يبتسم ، مدها نحوهم ..

ــ جربوا انتم ايضا .

ولما هزوا اكتافهم عجزا .. نقر احد طرفيها باصبعه فوقفت .

انسحبت الابتسامات على الشفاه اعجابا ، وآمنوا ان « عباس » رجل عظيم جدير بالزعامة ومن الواجب ان تنتظم السهرات في بيته.

قال « حسونة » في نفسه انه كان قد سمع حكاية البيضة هذه حتى من قبل ان يسافر عباس . وهو من البداية يشك ان في هذه الحكاية خدعة ومأرب خبيث وان توقيفها بعد كسرها مخل بالشرط الضمني ان تظل سليمة . وحين ادعى عباس انه بطل هذه الحكاية ، طفت في ذهنه ان يمد يده الى البيضة فيكسرها، ولكنه لا يدري لم نسي الموضوع بمجرد ان نظر الى عيني عباس .

« سيأتي الوقت المناسب فيفضح عباس ، ويقلب نظام السهرات على راسه وسيضحك الرجال عليه، وستجمد المفاجاة قسمات الزعيم، وسينهار ، لا بد ان ينهار عندما يعريه من ثوب الادعاء الزائف .. والامر كله لا يتطلب منه غير كلمات قليلة ينطقها بنبرة هادئة متزنة ، وبعدها تتحول الامور لصالحه حتما . وسيترك مكانه بجانب النعال ، وسيجلس على المتكا الوثير وسياخذ زمام المبادرة في الحديث . فتسمعه زوجته وتنصت النسوة خاشعات » .

مرة اخرى استيقظ على واقع انه بجوار الاحذية ، تغزو منخريه منها رائحة قاتلة والرجال في منأى عنه باحاديث مسلية .

ركز نظراته على عباس ، فمال الحقد في صدره موزانا عنيفا قلب

# الاصالة والحداثة

★

اضحى القديم مرابعا لا تطرق     وبضاعة في السوق ليست تنفق
فاذا التراث بزعمهم رجعية     ولغى الجدود بداوة وتحذلق
والشعر فخر العرب في ايامهم     جاروا عليه ، فساد نثر مطلق
والنقد ليس سوى مديح زائف     متبادل بين الصحابة يطلق
او سيل قدح لا ينى صخابه     فوق الرؤوس على الاباعد يدفق
واذا بنا في مممعان شائك     ضل البصير به وحار المنطق
كالخيل في الحلبات تدفع بعضها     ذياك سابقها وهذا الاسبق
لعبت باقدار الحروف عواصف     في البحر هائجة ، فجن الزورق
فاذا الاديب رعونة وتفاهة     واذا الاديب هوى وعقل اخرق
واذا الثقافة في الشعور طويلة     اما الشعور فذاك شيء مغلق
واذا بهم من كل نبع قطرة     لا يابسا تروي ولا ما يورق

البصرة ــ العراق     سالم علوان الجلبي

احشاءه . « لا بد ان يجعل من عباس هذا موضع سخرية والا لطمرته رائحة الاحذية ».

في العودة الى البيت آخر السهرة .. قالت له زوجته ساخرة .

ــ لقد بح صوتك ... ولقد اصبت اذني بالصم .

قال وهو غير قادر على اخفاء غله .

ــ شغلني التفكير .

كذبته بضحكة منغمة وصاحت:

ــ انت تدلني بين النسوة .

لمح في عينها رغبة ان تبصق عليه، فشعر بضآلته .

قضى الليل مفكرا . . وحين اهتدى الى فكرة اعجبته ايقظ زوجته وسرد عليها خطته ... فقرأ على ابتسامتها بوادر انتصاره الاكيد . ابكر في المجيء الى المضافة . جلس بجانب عباس ، ووضع البطيخة التي احضرها بالقرب منه . ولما ساله عباس عن سبب احضارها ، كاد ان يتلعثم لولا ان جمع فلول شجاعته فقال :

ــ بطيخة مباركة .. ستحل ما استعصى من امور ... وسترى . .

حاول ان يغرس نظراته في احشاء عباس . ولكنه لم يستطع ، فصبر الى حين اكتمل جمع الرجال . وسره من البداية ان لم يتخل لاحد منهم عن مكانه . ثم نهض والبطيخة بين يديه وقال :

ــ يا عباس .. ايها الرجال .. هذه بطيخة. انتم ترون انها بطيخة. لم اغشكم . اتحداكم ان يستطيع احد توقيفها على اصبع واحدة .

لمح في عيني عباس ابتسامة ونظرة تحد صوبها الى بقية الرجال الذين دارت عليهم البطيخة بالتناوب، ففشلوا . كلهم فشلوا . رفت على شفتي حسونة ابتسامة انتصار وكاد ان يتنهد ارتياحا .

ــ الي بها .

صاح عباس . غدت البطيخة بين يديه . رفعها الى اعلى حتى يراها الجميع . بحركة خاطفة طعنها باصبعه غاصت اصبعه فيها . ارتفعت واقفة . انتشر الذهول على وجوه الحاضرين . ونشبت غصة قاتلة في حلق حسونة ، ثم اغمي عليه ، وهو يرى الستارة ترتفع لتندفع النسوة الى قسم الرجال تتقدمهن زوجته .

وحين صحا الفى ذاته في مكانه المعهود بجوار النعال . وعباس مستقطب نظرات الرجال والسنتهم . شعر ان في حكاية البطيخة كالبيضة خدعة فادخال الاصبع فيها لم يكن من الشروط الضمنية لتوقيفها . حاول ان يتكلم بذلك الا انه راى في عيني عباس حبالا تربط لسانه .

فامل ان ياتي اليوم الذي يستطيع فيه ان يكشف عن هذه الخدعة . ويضحك الرجال على عباس ، ومن ثم يجلس مكانه على المتكا الوثير .

عمان ــ الاردن     احمد عودة



نقولا يوسف

# نقولا يوسف في عيده السبعيني

بقلم سمير وهبي

* * *

منذ شهور ، صعدت الى صومعته بحي كليوباترا في رمل الاسكندرية ، كعادتي كلما زرت هذه المدينة الجميلة . وكان مساء ، فهو يذهب في الضحى الى شاطىء البحر حيث يخلو في احد « الكازينات » مع كتابه وورقه واقلامه. وجلسنا في مكتبته التي تغطي المطبوعات والمخطوطات جدرانها . وتخيلت لو كان بهذه الغرفة مسجل للاصوات لاسمعنا احاديث اهل الادب والفن ممن زاروا داره خلال السنين ، وقد رحل الكثير منهم الى دار البقاء . ومع ذلك ، فهنا مكان يخفي المئات من رسائلهم وصورهم ومؤلفاتهم . وهنا ترى شيخنا في محرابه مثقلا بالذكريات والتجاريب ، ويروي لك منها ما شئت ، وقد اعتزل العمل بعد أن خدم التعليم ونفع الطلاب خمسة وثلاثين عاما متصلة ، وتتلمذ عليه الالوف ممن بلغ بعضهم اعلى المناصب . وطاف بالشرق والغرب ، والف الكتب ونشر المقالات والقصص ، والقى المحاضرات واذاع الاحاديث ، ولم يتعطل قلمه منذ خمسين سنة ، وان كان لم ينشر او يجمع جل ما كتب !

وفاجأته بتهنئتي بذكرى مولده السبعينية ، فقد ولد في ١٢ مارس من عام ١٩٠٤ ـ وكاد ينسى ذكره وسط الاحداث الكبرى . ولما علم اني اجهز مقالة عنه ، قال : « ليس لي ان اعترض على ما يكتب عني ، فكل من يكتب للناس مثلي ، يصبح هو وقلمه ملكا مشاعا للناس ».وكل ما يرجوه شيء من الصدق والحياد .

بدأ الاستاذ نقولا يوسف حياته الادبية بنثر الشعر ، واحيانا بنظمه . وهكذا فعل معظم ادباء جيله في مطلع شبابهم ، سواء صدر ذلك الشعر عن موهبة او تقليد . ولم يكن صاحب الترجمة مقلدا ، اذ كان يحس يومذاك بدافع غريزي الى التعبير عن خوالج نفسه ، واحلامها في نمط من صور الفن . وقد يكون رسما او لحنا او شعرا ، ثم تتمخض هذه المشاعر فتلد قصيدة من الشعر المنثور غالبا والمنظوم نادرا . ولما خرج من برجه العاجي الى دنيا الناس ، والى ميدان التعليم ، واصطدم بمشاعر المجتمع ومرارة الواقع ، اتضح له ان طريقه المتعدد في عالم القلم والادب هو التعبير بالمقالة والقصة . وبدأ يكتب في صحيفة « السياسة الاسبوعية » التي كان يراس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل باشا فيما بين ١٩٢٦ و ١٩٢٩ . فلما تعطلت ، كتب في « المجلةالجديدة» لصاحبها سلامة موسى بين ١٩٣٠ و ١٩٤١ حتى احتجبت وكانت مقالات منوعة في الادب والنقد والاجتماع والتراجم والفلسفات ( نرى بعضها في كتاب « الحياة الجديدة » الذي اهداه سلامة موسى الى مشتركي مجلته عام ١٩٣٦ ) . ثم واصل كتابة المقالة والقصة والتراجم في صحف ومجلات اخرى ، وبخاصة مجلة « الاديب » البيروتية .

واول كتاب له كان من الشعر المنثور ، وعنوانه « الفردوس » ثم ظل ينشر في جريدة « السياسة الاسبوعية » قصائد الشعر المنثور في شتى صور النفس والحياة ، جمع اكثرها في كتابه « نسمات وزوابع » المطبوع في عام ١٩٢٧ . والف روايته الاولى « الهام » في العشرينات ، غير انها لم تنشر الا في ١٩٣٧ . وقد تميزت هذه الراوية بشاعرية خاصة ، تعود الى مؤثرات وجذور بعيدة ، يدخل في تكوينها ما للوراثة والبيئة والتجارب الذاتية والتحصيل من اثار في تنشئة الفنان والاديب ، خاصة اذا كان ذا موهبة طبيعية مهياة لتلقي هذه المؤثرات . ونحن نعلم ان نقولا يوسف قد ولد ونشأ في مدينة ذات ميزات جمالية في موقعها بين البحر الابيض ونهر النيل وبحيرة المنزلة ، وحولها الحقول والمياه والنخيل وتتناثر بها دور العبادة والبيوت القديمة ، ويعبق جوها بالذكريات التاريخية وغريب الحكايات وطريف التقاليد. انها مدينةدمياط . وفي هذا الجو ، قضى الاعوام الثلاث عشر الاولى من حياته قبل ان ينتقل مع اسرته الى القاهرة في عام ١٩١٧ . اما الاسرة التي نشأت في هذه المدينة منذ عدة اجيال ، فكان بينها من يمارس بعض الفنون هواية ويقتني بعض الكتب العتيقة (مثل والده) ، ومن يتعلق

بالدين وطقوسه وحكاياته ، ومن يملأ عليهم دنيا الطفولة بالقصص واساطير الاولين . كان هذا كله داعيا الى اشعال الخيال وتغذية الاحلام حتى تعلم القراءة وانغمس في مطالعات لا حصر لها للروايات والقصص والحكايات والاشعار .

وجدير بالذكر ان هذه المدينة الهمت ايضا العدد الوافر من الشعراء والكتاب الذين كتب عنهم بجريدة «اخبار دمياط» الاسبوعية منذ ربع قرن ، ثم جمع شملهم في كتاب «اعلام دمياط» المعد للطبع ، ومنهم علي الغاياتي وحسن كامل الصيرفي وعبد اللطيف النشار ، ومحمد الاسمر ، وطاهر الطناحي وطاهر ابو فاشا ومحمود عبد الحي وفاروق شوشة ، وعلي العزبي ، وطاهر الجبلاوي وكثيرون غيرهم .. مثل العالم الكبير الاديب الدكتور علي مصطفى مشرفة باشا والعالم احمد عبد السلام الكرداني والقصاص مصطفى مصطفى مشرفة وعشرات غيرهم من الاقلمين ، سواء من الشعراء او رجال الدين ، وكان وفاؤه لمسقط راسه ومسرح طفولته مما دعاه الى الكتابة عن اعلامه بجريدته الاقليمية خاصة ، والكتابة عن تاريخه منذ القديم . وكانت النتيجة ان خرج من ذلك بثلاثة مؤلفات قيمة هي : «تاريخ دمياط منذ اقدم العصور» (المطبوع في عام ١٩٥٩)، وكتاب «اعلام دمياط» السالف الذكر ، ثم كتاب تاريخي ثالث عن «بحيرة دمياط» وما كان لها من المدن ثم اندثر وسماه «تنيس وبحيرتها» ولم يزل مخطوطا منذ عشرين سنة .

وتجلت موهبة نقولا يوسف في مجال القصة ، فظهرت اول اثاره القصصية في قصة قصيرة بالسياسة الاسبوعية عام ١٩٢٩ بعنوان «جنود الخلاص» . وبعد ظهور روايته «الهام» في عام ١٩٣٧ كانت المجلات الادبية تنشر له قصصا قصيرة ، اجتمعت فيما بعد في «دنيا الناس» (١٩٥٠) و«مواكب الناس» ـ ١٩٥٢ ـ و«هم ونحن» ـ ١٩٦٢ ـ . ثم في مجموعة رابعة معدة الان للطبع . وموهبة القصة راسخة في اعماق هذا المؤلف . وكثيرا ما نراه يتحول الى ميدان التراجم والسير الادبية والتاريخية، فيكتب لنا هذا العدد الوافر المنشور في الصحف والمجلات، ومنها مجلة «الاديب» ، ومنها ايضا ما يضمه كتابه الكبير « اعلام الاسكندرية» المنشور في عام ١٩٦٩ ، فضلا عن كتابه سالف الذكر عن اعلام دمياط . والحقيقة ان ما نراه تحولا ليس الا تعبيرا اخر عن موهبة القصة المتاصلة . فالكاتب حين يترجم لحياة انسان مشهور او مغمور ، فانما يكتب قصة واقعية . وكذلك فهو حين يكتب تاريخ أمة او مدينة، فانما يروي قصة حياتها . فاذا اشرك الخيال في الوقائع الثابتة لهذه القصص ولم يخرج عن دائرة الحقائق ، سمي عمله بالقصة او المسرحية او الملحمة التاريخية . وهنا يمكننا ان نشبه القصة بالشجرة الباسقة ذات الفروع الاطوال والانحناءات والاشكال . وكلها فروع شجرة واحدة هي شجرة القصة والرواية والحكاية ..

واكثر السير التي حررها بقلمه انما هي تراجم نقدية تدور حول حياة الادباء والفنانين خاصة . واهتمامه متجه في المقام الاول الى الناحية الادبية بالطبيعة والفطرة ، لا الى النواحي الاقتصادية والهندسية والالية ، وان كانت لا تقل اهمية عن الادب . وهو يحب الكتابة عن الراحلين من اساتذته واصدقائه الادباء والفنانين من باب الوفاء ، وان كان احيانا يكتب عن الاحياء منهم في مناسبات خاصة . ومن باب الوفاء ايضا للاسكندرية ، حيث امضى معظم العمر ، كتب عن اعلامها . وكان بين اعلام هذه المدينة وكذلك دمياط ، الكثير من المحدثين .

وشيمة الوفاء من الشيم البارزة في شخصية الاستاذ نقولا يوسف . وهل منا من ينسى وفاءه للشاعر المرحوم عبد الرحمن شكري الذي كان من بين معلميه بمدرسة رأس التين الثانوية ، بالاسكندرية ، ثم استمرت صداقتهما ومراسلاتهما حتى يوم وفاة الشاعر شكري ، مما دعا الاستاذ نقولا يوسف الى كتابة عدة مقالات عنه والاسهام بعد ذلك في اخراج ديوانه الكبير ، والى اعداد مؤلف عن حياته وشعره ونثره ، نرجو ان يظهر في يوم قريب .

لمسة وفاء اخرى . كتب عدة مقالات عن ادباء الزنوج وهيأ كتابا يشتمل على الكثيرين منهم ، وكان ذلك وفاء لمربيته «دادة سعادة» ، التي ربته في طفولته وصباه وكانت زنجية حبشية .

ولمسة اخرى للوفاء ايضا : فقد نشر عددا وفيرا من التراجم النقدية عن الادباء والاديبات من اليونانيين بمصر وخارجها . وبحث في الادب اليوناني الحديث. وجاء هذا الاهتمام وفاء لزوجته اليونانية الاصل ، المولودة في مصر. وكان طبيعيا ان يكون اكثر ما كتبه طوال حياته من تراجم وتواريخ وغيرها مستلهما من وطنه المصري ومن شقيقاته الاقطار العربية التي يكن لها الوفاء والحب اولا واخيرا .

ومن باب الوفاء ايضا ، يحافظ الاديب الكبير نقولا يوسف على صلاته باكثر من مائة من اهل الفكر والقلم وقد راسل بعضهم وتاثر بهم ، وكانت صلته ببعضهم وثيقة وبالبعض الاخر محدودة . وكان من الطبيعي ان يتاثر الى حد ما ، او الى وقت ما ، بقلة منهم . وهذا التاثر يكون عادة في الصبا وفي مرحلة الشباب المبكر ، ولا يكون محصورا في فرد واحد او في بضعة افراد ، وانما يتسع بالمطالعات والاستماع على اوسع مجال . وقد قرا في صباه كل ما كتبه مصطفى المنفلوطي وعرفه وراسله . ثم قرا مؤلفات جبران وادباء المهجر وتاثر بهم بعض الوقت . وفي مدرسة راس التين الثانوية عرف الشاعر عبد الرحمن شكري وقرا مؤلفاته كلها ، ودام اعجابه به وتراسل معه حتى وفاة هذا الشاعر . كما عرف المؤرخ المشهور شفيق غربال الذي كان يدرس له التاريخ في تلك المدرسة وكذلك الشاعر ليبرت الذي علمه الفرنسية .

# الدكتور محمد مهدي البصير

الدكتور باقر سماكة

• • •

قصيدة القيت في الحفل التابيني الضخم الذي اقيم في الحلة الفيحاء بالعراق مدينة الفقيد الكبير الدكتور البصير

بكينا ولكن المدامع لا تجدي ... غداة نعى الناعي لنا العيلم المهدي
ورانت على الاسماع عند نعيه ... سحابة حزن اومضت بلظى الوجد
يمينا بصفو الذكريات وانها ... سوابغ نعمى من هناء ومن سعد
وبالامنيات الثاكلات حرائرا ... يتامى على جمر الفجيعة والفقد
وبالماثلات الذاهلات وانها ... اويقات وصل قد جزعن من البعد
بما بيننا من لحمة شد ازرها ... تعاطف مما نصطفيه من الود
وبالهائمات الوامقات فؤادنا ... لبانات قلب حائمات على الورد

---

وفي كلية المعلمين العليا بالقاهرة والتي تخرج فيها عام ١٩٢٦ عرف المستشرق الاسباني الكونت دي جالارزا، استاذ الفلسفة فيها وحادثه ثلاث سنوات وتراسلا بعد ذلك . وعرف في هذه الكلية ، امين مكتبتها ، الشاعر احمد رامي . ولما عمل بمهنة التعليم واخذ يكتب في جريدة « السياسة الاسبوعية »، عرف هناك الدكتور محمد حسين هيكل وحادثه طويلا وقرأ مؤلفاته ومقالاته . وعرف ايضا في هذه الصحيفة ابراهيم عبد القادر المازني ومحمد زكي عبد القادر وعبد الله عنان . وكان تعرفه بالدكتور طه حسين عن طريق مؤلفاته ومحاضراته اكثر من اللقاءات، ومنذ عام ١٩٢٧ ، بدات صداقته مع سلامه موسى وظلا صديقين يتزاوران ويتراسلان حتى وفاة هذا الاخير . ولما انشا الاستاذ سلامه موسى « المجلة الجديدة » عام ١٩٢٩ كان الاستاذ نقولا يوسف من كتابها الدائمين حتى احتجبت ، وهو لا ينكر تأثير سلامه موسى عليه في فترة شبابه . ثم كان تعرفه في هذا العهد بعباس محمودالعقاد وبالقاص محمود تيمور . ومن اصدقاء عمره الاستاذابراهيم المصري ـ مد الله في عمره ـ والمرحوم محمد امين حسونة. ثم لا ننسى في هذا المجال القاسم المشترك لكل الادباء الصادقين ، ونقصد به الاستاذ وديع فلسطين . ويمكن القول ايضا جميع ادباء دمياط السالفي الذكر ، وادباء الاسكندرية ، وبخاصة خليل شيبوب وصديق شيبوب والفنان محمود سعيد وسيف وانلي وعبد اللطيف النشار وعثمان حلمي وعبد الحكيم الجهني ومفيد الشوباشي.

واذا توقع القارىء العزيز ان نكمل له كل اسماء اصدقائه في الاقطار العربية لتحول هذا المقال الى قائمة طويلة ، كل اسمائها لها الاعزاز والاجلال والمكانة الرفيعة في قلب الكاتب الكبير.

ولعل خير ما نختتم به مقالنا ان نذكر لقراء «الاديب» المقالات التي نشرت في اعدادها السابقة عن هذا الاديب الكبير وهي:

( ١ ) كلمة عن «مواكب الناس » للاستاذة فلة فهمي بدوي ( مارس ١٩٥٣ ) ، (٢) كلمة عن « هم ونحن» للاستاذ الدكتور محمد رجب البيومي ( نوفمبر ١٩٦٢ )، ( ٣ ) حديث ادبي مع نقولا يوسف للاستاذ نبيل فرج ( يونيو ١٩٦٦ )، (٤) نقولا يوسف الكاتب الانسان للاستاذ عبد العزيز جادو (سبتمبر ١٩٦٧ ) (٥) حديث ادبي عن رسائل الاستاذ نقولا يوسف للاستاذ نبيل راغب ( ابريل ١٩٦٩ ) ، (٦) نقولا يوسف بقلم الانسة نادية ابو طالب ( يونيو ١٩٦٩ ) ، (٧) نقولا يوسف الناسك الهندي بقلم الاستاذ الدكتور محمد رجب البيومي ( سبتمبر ١٩٦٩ )، ( ٨ ) « اعلام الاسكندرية» كلمة للاستاذ عبد الحكيم الجهني (يناير ١٩٧٠) .

تحية عاطرة للاديب الانسان نقولا يوسف في عيده السبعيني !

مصر الجديدة

سمير وهبي

اطاح بي الوقـع الممض وانـنـي      لاخفي من الاهات اضعاف مالبدي
الوذ ببقيـا علقم الصبر ناقعـا      وكنت رويـا من زلال ومن شهد
وكنت اقضي بعض ليلي مسامرا      فهـا انا اقضي كل ليلي بالسهد
لان غـال صرف الدهر عهدافديته      لو ان الفدا يجدي باثمن ما عندي
وصوح روض كم نعمنـا بظلـه      يمـد الربيع الغض بالطلوالورد
وظلت على رغـم الامـاني مباهج      فاني مقيـم ما حييت على العهد
ايا شاعرالعشرين(١) هبلي فصاحة      اعبر فيها عن شجوني وعن قصدي
ايا شاعر العشرين قد شل مقولي      نعيـك حتى سال دمعي على الخد
معاذ الوفاء المحض ان ادعي الاسى      وازعم اني فيه ممتحن وحـدي
وان قناة سدد الموت نصلهـا      اليك فاصمت، حزنها لا ولن يعدي
فهذا الوجوم المستبد باوجـه      يرنقهـا وجد قسى لاهب الزند
تباريح ما ضمت ضلوع من الجوى      عليك ومما قد توهـج من وقـد
ومن غاطفـات الحب تحنو عهدتها      عليـك جنو الامهات على المهـد

فقدناك بحرا ليس يجـزر مـده      وليس كبحر دائم الجـزر والمـد
يجـود فيروي الجيل بالرفدواهبا      ويزداد غمرا كلما زاد بالرفـد
فقدناك طودا يرهب النسر ان رنا      اليـه واين النسر من قمة الطود
فقدناك حر الرأي كالصبح ناصعا      وفي حلبـات الروع كالاسد الورد
بصيرا باسراز الخفـايـا محنكـا      له صائبات الرأي في الحل والعقد
بصيرا على رغـم الظلام وسجبه      وكم بصر يعشـون في فكر رمـد

وثبت وثـوب الليث تبغي تحررا      وصلت على مستعمر جائر وغـد
وما نال منك المستبد وبطشـه      وتلك لعمري انها شيمة الاسـد
نفيت الى هنجام(٢) بالقيد موثقا      متى حفل الابطال بالنفي والقيد
صبرت على لؤم الزمان وغـدره      ولم تبتئس من مكر دنياك والكيد
رحلت عن الدنيا نقيا مباركـا      الى عالم خال من الغل والحقد
ونادتك ارض قد شغفت بحبهـا      فعدت كما عاد الحسام الى الغمد

تؤبنك الفيحاء فيحاء بـابـل      وما زالت الفيحـاء خفاقة البند
ولودة افـذاذ النوابغ للعـلا      وتاريخها بالمسـك يعبق والند
اذا عـدت البلدان عقدا فهـذه      هي الحلـة الفيحاء واسطة العقد
ففي كل مسرى نسمة من نسيمها      صبا ذكريـات اين منه صبا نجد
وفي كل شبر من ثراهـا عوالـم      ودنيا تهز القلب تحيي كما تردي

وداعا ابا الاحرار انـت مخلـد      بفضل ايـاد قد تسامت على العد
وغبن يمض النفـس ان برغمنـا      نـودع كنز الفضل في حفرة اللحد
وداعا وضيم ان نودع عالمـا      من النبل والعرفان والطهر والمجد
وداعا مربي الجيـل ذكرك عاطر      بفضل نضال قد تكلل بالحمـد
اعزي ذويـك الاقربـين وكلنـا      ذووك وانا منـك كالاب والولـد
عليك سلام كلما لاح بـارق      ونم بجـوار الله في جنة الخـلد

---

( ١ ) اشارة الى ثورة العشرين التي قام بها الشعب العراقي ضد المستعمرين عام ١٩٢٠.
( ٢ ) احدى جزر الخليج العربي

بغداد ـ ص. ب ٤٦٧      باقر سمـاكة

# الصيف في بسكنتا

**بقلم المحامي كعدي كعدي**

• • •

بسكنتا من الارض كالراس من الجسم والعين من الراس، وانسان العين من العين ، كائنة في سفح صنين على كتف وادي الجماجم الرهيب المليء بالمهابة والروعة والجلال . . خصها المكون بتكوين هندسي فتان ، وجمال طبيعي ساحر ، ومناظر خلابة لم يجد بمثلها على سواها من بقاع الارض . تحوطها سلسلة جبال كانها حراس تحرسها ، يتصدرها جبل صنين الشاهق الذي يكلل الثلج هامته شتاء وصيفا فكأنه بجلال وقاره اب وبسكنتا بتلالها وهضابها واوديتها وحدائقها عائلة يرعاها بعينه الازلية فيستقبل الشمس في الصباح الباكر ويرسل شعاعها دفئا وعافية وحياة لعياله للذا سمي صنين اي مطلع الشمس وصنو الشمس في الاشراق واللمعان فوجهه ناصع كبياض الشمس لا يعرف غروبا .

من البديهي ان للمناخ تأثيرا على عالم الانسان والحيوان والنبات فترى اهالي بسكنتا وسكانها يتمتعون بحصة الاسد من الهبات التي اغدقها الله على بلدتهم فهم يحبون الغريب محبتهم لنفوسهم فلا غربة ولا وحشة لغريب في بسكنتا ، وهم من صلابة صخورها وعزم اوديتها وانفة جبالها جبابرة ارادة وعزيمة واعتماد على النفس فتقوا من الصخور كروما وجنائن تفاح وكرز وخوخ تغزو ثمارها اسواق العالم وتتصدر موائد الرؤساء والملوك .

في تلك البلدة الجميلة ولدت وترعرعت بين آكامها وربوعها وهبطت اوديتها وتسلقت جبالها وجريت مع جداولها وغدرانها وزرعت ايام صباي في حقولها وتفيات ظلال صخورها واشجارها وحمت حول الفراشات حوم الفراشات حول الزهور . حتى لاصقت روحي ارضها وسماءها فلم تثنني عنها مدارس او جامعات او محاماة او مدينة او مدنية فهي البقعة الوحيدة التي اصطاف فيها وتحن اليها روحي وتصبو جوارحي ولا ارضى منها بديلا ولقد صدق ابو تمام حيث قال :

كم منزل في الارض يالفه الفتى     وحنينه ابدا لاول منزل

في تلك القرية الوادعة بنيت بيتا متواضعا تغمره اشجار التفاح والكرز وتتدلى فوقه عرائش العنب وتزهو في عرصاته طوائف الزهور . في هذا البيت يخفق قلبي بالراحة والطمانينة وصفاء البال خفقانا لا اجده في قصر او عرش ولقد اجادت ميسون بنت الجندل بقولها :

لا اصدق متى ياتي الصيف حتى تجدني احزم مشاكل

لبيت تخفق الارواح فيه     احب الي من قصر منيف

المحاماة ومتاعبها وهموم الحياة واعباءها وضجيج المدينة وانات المظلومين وظلم الظالمين وغطرسة المتغطرسين وعتو المتكبرين وفخفخة النافخين ببوق الانانية لادفنها تحت ظل صخرة من صخور بسكنتا والحدها في سكينة ليل من لياليها واغسل اثار الدم الملوث بعبير زهرة من ازهارها ولا اكون مغاليا ابدا اذا قلت ان بسكنتا غدت لحدا لمتاعبي واسقامي ومهدا لراحتي واحلامي فصيفها كفلك نوح يقيني جحيم الحر وطوافان ضجيج الفساد وصخبه .

الصيف على قصر عمره واسع الصدر يتسع للحساسين والغربان والورود والبلان والظربان والغزلان كثير الخيرات فهو مائدة ممدودة لعيال الحياة فللنملة من بيادره زادها وللنحل من ازاهره حلاوة شهده ، وللرعاة من المراعي والحقول واعالي الجبال مسرح لاغنامهم وماعزهم يسرحون ويمرحون ضاربين على المزمار والمنجيرة فيرقصون المراعي طربا فتفتح ذراعيها وصدرها وتعطي كل ما فيها من خضرة واعشاب . والطريد الذي شردته تقاليد البشر وعاداتهم ومظالمهم يجد ماوى له في كل بقعة من بقاع الارض فيفترش الغبراء ويلتحف السماء .

وللنسيم وشوشات في آذان الاغصان تابى الاغصان الا ان تذيعها حفيفا يسكر الارواح . وفي اغاريد الطيور واهازيجها موسيقى تنقر على اوتارها انامل فنان دونه كل فنان . وللينابيع والجداول في سكون الليل ورائعة النهار خرير يدعو العطاش الى الارتواء مجانا وثوابها انها اعطت نفسها لتحيي غيرها وهذا شرف العطاء الذي جعلته الطبيعة شعارا لها .

واذا ما شاقك ان تعرف ان عظمة الحياة في التعري من الزخارف والبهارج والابهة والفخفخة فاقبل على الطبيعة في الليل تجدها هيكل صمت وتخشع وتامل وعبادة مضاء بمصابيح النجوم التي تنير طريق الضالين في متاهات الجهل والغرور وكل ما فيها اجواق يصلي قدوس قدوس هو الله ؟ خالق السماء والارض الذي منه كل شيء واليه يعود كل شيء .

ولا تخش السير في الطريق وحدك تاويبا وادلاجا فان مواكب الفن والسحر والجمال والانس تواكبك اني حللت وحيث رحلت . واذا ما جلست الى زهرة تجدها تعطر الارجاء بشذاها العابق بانفاس المحبة والسلام . والناس يعقدون المؤتمرات تلو المؤتمرات ويطلقون الطيارات والصواريخ نشدانا للسلام ولا يهتدون الى السلام لان السلام ينبع من القلب لا من الصواريخ والطيارات فاعجب لزهرة تصنع السلام ودول الارض تعجز عن صنع ما تصنع ، وغاية الانسان من الحياة ان يسالم نفسه فيسالمه الناس .

ويروقك من الطبيعة ان كل ما فيها ياتيه رزقه عفوا

## حرروا القدس

طفح الكيل ومل الصبر فينا
واكتفينا
فازحفوا
نملأ الدنيا اساطير بطوله
او فنينا

وامزجوا العزم بعزم يعربي
فاذا الاخوان قوه
واذا الترب طيب واريج
انه ارج الاخوة
يا دماهم لن تراقي عبثا
كل شبر من ثراك
اصبح اليوم اهازيج
وغنوه

من ربى لبنان يا جار السماء
من ذرى مكة يا ارض النبوه
منبت الابطال يا ارض الجزائر
من كويت العز
من ارض الرشيد
من ذرى الجولان
من مصر الحبيبه
حرروا القدس السليبه
من هنا من كل شبر
يا شعوب العرب هيا
طفح الكيل ومل الصبر فينا
فازحفوا
نملأ الدنيا اساطير بطوله
او ... فنينا

الرابية لبنان اسمى طوبي

دونما استجداء او ترام على الاعتاب وبذل ماء الوجه والكرامة واستعمال اساليب التزوير والسرقة والاحتيال والرشوة وبيع الضمائر في سوق النخاسة . حسبك راحة في تلك الاجواء انك تلقى فيها ما ينسيك نفسك ولو بعض اللحظات : فما اروع الصيف وما اكرمه ! سموه فتى الفصول وما انصفوا لو انصفوا نسموه كل الفصول فهو عيد السماء والأرض ، هو عرس الطبيعة الراقص بالافراح والمسرات هو ليل العشاق والشعراء والمنشدين والملهمين الذين يبصرون في ظلماته ومضات وحي يوحي هو خزينة الطبيعة الملأى بالخيرات والبركات . هو اهراء الفصول التي تلتقي فيه كما تلتقي الينابيع والجداول في البحار .

فلا غرو اذا ما اقامت الطبيعة من الغبطة والسرور مهرجانا لاستقباله ومن الحزن مأتما لوداعه . فما الابتسامات المتلألئة على ثغور المروج والحقول الا ابتهاجات وتهاليل الربيع باستقبال الصيف . وما عويل الرياح في الاودية وبروق ورعود السماء وغيوث السحاب الا تنهدات وتحسرات ودموع عين الشتاء على فراق الصيف . وما اصفرار اوراق الاشجار وتناثرها والتواء اعناق الازهار والكآبة المخيمة على وجوه التلال الا شحوب وجه الخريف من فرط حزنه على رحيل الصيف .

فكيف تستقبل الطبيعة الصيف وتودعه ولا اشارك الطبيعة في الاستقبال والتوديع وانا جزء من الطبيعة ؟ فيا ايها الصيف المالىء الدنيا بهجة وجمالا وخيرات ! يا من تشارك كفه في توليد خيرات الارض ايها الكاسي العراة والمطعم الجياع والساقي العطاش والمبدل عويل الرياح في الاودية نسيما عليلا . والحاضن اليتيم وابن السبيل والشريد والطريد ، والناظر الى الاجيال بالف عين وعين غير مقيم فارقا بين قوم وقوم ومذهب ومذهب وطائفة وطائفة كأنك رسول الحب الشاملة .

من انت ؟ انت طرفة من عين الزمان ، والزمان حركة المكان فهل لك وانت الدائر في فلك الزمان الذي تعي ذاكرته ما مضى وما يمضي ان تذكركم دورة درت في فلك الحياة وهل لدوراتك حد او عد ؟ وهل من ودعك بالامس هو هو الذي يودعك اليوم ؟ وهل كل من يودعك يودعك ذاته ؟ انا لا ادري من اودع اأودعك ام اودع نفسي بوداعك وقد تغلغلت في ثناياك ؟

فالاودية التي هبطت اليها بالامس تهبط الى اعماق روحي اليوم . والجبال التي كنت اتسلقها تتسلق ابراج فكري. والظلال التي تفيأتها اصبحت تتفيأ ظلال قلبي ، والتلال التي كانت تحملني احملها في خيالي . والينابيع التي كنت اجري معها تجري في داخلي . والمأوى الذي كان يأويني بت مأوى له .

لا . لا . اودعك فانت مقيم في نفسي فالى اللقاء ايها الراحل المقيم في فكري وروحي وقلبي وخيالي .

كمدي كمدي

# بعد عام

جرحك في قلبي تعلمينه ... مدى حداد ذبحت وتينه
فساقطته مزقا سخينه ... ليتك في بلواه ترحمينه

ينفر مشبوبا فما اطيقه ... يوشك ان يعصف بي حريقه
اهرب لكن منهبي طريقه ... يدعوك ملحاحا وتتركينه

تايت لم تعطى له عنوانا ... فهام بحثا عنك ما توانى
برا وبحرا ، لم يدع مكانا ... في حيرة تسلبه السكينه

مولولا لم يدر اين انت ؟ ... سطعت مثل البرق واختفيت
مطفئة كل سنا ببيتي ... ساحقة مهجتي الحزينه

اريد ان انسى ، واين مني ؟ ... وطيفك الماثل نصب عيني
يجد منعاك رهيب السن ... ممزقا حشاشتي الطعينه

عام مضى ، فحث به الالام ... افاعيا نيوبها سمام
انتقضي كمثله الاعوام ! ... والموج عات يتهم السفينه

شبابك الناضر حين غابا ... مزق عن باصرتي الحجابا
فشمت كل ثروة سرابا ... وان تكن نادرة ثمينه

شهدت كل فاتن خلوب ... منعم في اهله حبيب
رهين يوم غادر عصيب ... يثير عند ذي الحجى شجونه

الم تكوني نفحة العبير ... هبت من الفردوس في الهجير
سرت فاحيت هامد الشعور ... ثم مضت في سفر ظعينه

اتسفر الشمس مع الصباح ... باهرة فضية الوشاح
مدلة بسحرها اللماح ... وانت ما بين الثرى دفينه

اتسرح الغيد مع الاصيل ... طيوف حلم ساحر جميل
سوانحا كالطير في الخميل ... وانت في لحدك مستكينه

والقمر الساحر في المساء ... مليك افق باهر العطاء
يلالىء الغدران بالضياء ... وانت في الغيهب تجهلينه

وددت القاك ولو دقيقه ... تطفىء حمى كبد مشوقه
فبعدك الفاجع لن اطيقه ... وغيري السالي فلن اكونه

اسال كيف اغتالك الحمام ... ونحن في هجعتنا نيام
قمنا ، فراع القدر الجسام ... وزلزلت قاعدتي المكينه

ابكيك لا آلو اسى عليك ... مرددا مناحتي بايكى
ابكيك حتى انتهي اليك ... فكل نفس بالردى رهينه

الرياض ــ كلية اللغة العربية ... محمد رجب البيومي

# يوسف غصوب

**١٨٩٣ – ١٩٧٢**

**بقلم فوزي سابا**

• • •

في بالي ابدا هو ، على حرمة الاناقة التي لم تتالق في حياته الاجتماعية والعملية وحسب ، بل كانت الطابع لشعره وادبه ، لذلك سيبقى له التخطر المفرد في عالم الادب ما زال للفن صغاة وصناع .

عندما هجس الادب في داخل الفتى يوسف غصوب كان لبنان على ضنى الجوع والحرمان والاصابات عليه تنكيل وتشريد ، مما جعل الشباب على سقم وضياع ، وان حالة كهذه لما يصقل النفوس ويجلو الشفافية فالاعصاب والاوتار المشدودة اي همس يضرب عليها ملحنات تنجدل عليها الخصور ، ولا صبوح ولا غبوق بل فرحة اعمار ثم نعمى ارتياح.

ويضج الظما في صدر يوسف غصوب خلال الحرب العالمية الاولى فيحاول ارواء غلته بما تندى على الجدران العتيقة من دموع وما نش منها آهات فما كاد لبنان يعود، بعد الحرب ، الى وجوده وينفجر شبابه في قرود اين منه الضياع ، فقد اكتملت الهموم عليه من جوع الى تخمة، اصدر كتابه « اخلاق ومشاهد » الذي لم يدون فيه ما دهى لبنان من مصائب ، فلقد ذهبت بذهاب الحرب العالمية الاولى ، بل دون فيه مصابه الذي جاء نتيجة ذهابها ، الذي لا ذهاب له ، الذي يزداد كلما عمرت المعد بالتخمة ، وكم تخمة هي اقتل من جوع ، واذهب بالالم عن مدارج الكينونة .

من هذا المنطلق راى يوسف غصوب الى المسالة اللبنانية ، فكان له الفتح المهذب في معالجتها على نمط تضويري في الهزل ابعد رواحا من الجد الى معالجة المرض الاجتماعي الذي لو داويناه منذ وصوله الينا على طريقة يوسف غصوب في كتابه «اخلاق ومشاهد» ، لما انتشر وباء وازداد انتشارا حتى اصبح اليوم فتاكا لا تنفع فيه الادوية .

ما زال مترسما في بالي فصل من كتابه هذا موسوم «بمسيو لبنان» يصف فيه المتفرنجين المتانثين، جاء تحذير من سموم هذه الافة ، التي نحن عليها اليوم ،لا زجرا منفرا ولا عتابا مثيرا ، انما كلمة الامومة فيها الحنان وفيها ارجاع الرشد الى من ضلوا او كادوا اليس ابناء لبنان فلذات كبد كل لبناني اصيل في لبنانيته ، امين على تراثه قيم على مآثره ،وامجاده والمثل العليا التي وجدت لان لبنان شادها.

وقد سالت على يراعة شاعر مؤمن حتى بالترابة من ارضه ، شاعر ابتعد في تقواه الى ما وراء حدود الوعي ، فالعبادة لا شرك فيها ،.متى انت قوام على الجمال .

يوسف غصوب ، راى فانتشى ، واخذه الانتشاء ، فملد في الحرف كما الغصون ، ولين في الكلمة كما القدود ، وانسراح في النهج كما الينابيع في الخمائل البكر من غياض لبنان .

وياتي به الفتح الجديد ـ الفرنسي ـ ظنا به انه بدل للتملك العثماني فتكون اول بواكير يوسف غصوب كتابه «اخلاق ومشاهد» ثورة مضنى حمه الهم على مستقبل شباب لبنان فسل من شغاف قلبه احجبة تقيهم ما يحمله اليهم الفاتح الجديد من عاهات اخلاقية واجتماعية تروح منهم بالتراث الذي هم عليه ، هذه العاهات التي راى اليها بالحدس من خياله انها ستصبح اكثر ضررا وابعد اثرا في تمييع الاقتدار اللبناني ،من جميع اسباب القهر التي حملها الطغيان والاستبداد والجهل الى لبنان .

كان يوسف غصوب يترجم لغة الاسياد ولا ينحو نحوهم ، تاركا نفسه بعيدة عن مكتبه المنزوي في احدى زوايا المفوضيا العليا ، حتى اذا انتهى من المفروض عليه ، اعاد نفسه اليه ليعتمد معها بالزهو اللبناني .

في ذلك المكتب الخاشع للامر عمل يوسف غصوب مترجما ، وفي داره اعلنها ثورة على القبح كل القبح لا يفرق بين ما بدا في الوجوه وما بدا في النفوس ،حتى وفي الظنون.

ويطلع «العوسجة الملتهبة» و«القفص المهجور» ، لكاني بمداري افقا مبتهلات لاهلال عشتار او اني بصبايا جبيل يواكبن الضحى الى ينبوع الحياة مرنمات بالادعية لانهمار النور من الشمس ...

في كل الفية كتاب رويها الحب والجمال التقيته وقد راحت الحرب العالمية الثانية بمكتبه وبالمفوضية العليا، فوجدته اكثر شبابا مماكان عليه زمن الشباب، بعدما عاد الى نفسه كليا يثور معها ويلين، وكم اخذني منه شمم عندما ناصفته «جمعية اصدقاء الكتاب» جائزتها الشعرية مع اخر ، فرفض المناصفة ، ليس احتقارا لذلك الاخر ، بل على الرواح بالمثل وتداولها على ايد ليست في العير ولا في النفير .

بهذا الشمم كتب وعلى هذا الاباء عاش ولكثرة تسهده من اجل هذه المثل اصيب بالرهبة لها ، شان النساك في صوامع جبالنا ، فرق واستشف ، وانها من السماحات التي متى على نفس تتواجد فيها الصفات التي لها الرواح الى الحدس حتى لكان بها شيء من الايحاء .

تجاذبته الصفات فلا حيرة عليه ، نعم معها ، محدثا فاناقة سرى مبذر للصفاة منه خير عمم حتى الهمسة منه لها ايقاع كمن يضرب الوتر من عود اضناه الشد بريشة

براها التجويد ، فيمعن السامع ابحارا مع وراء القصد ، والهمسة من يوسف غصوب اقصر من ومضة وامرى من حلم .

في مجلسه ، لئن سعى الى جد ، فابتسامة كما الطهارة ، ولئن رام ارتياحا ولف الخصور على الهموم واعتصرها فرحة ، فاقرب الموارد ، انه ابتعد عن الابتذال حتى ليقال فيه رصانة على انفتاح .

هلي اناشيد موقعــــة     انغامهـــا الحرى على كبدي
لا حكمة فيها ولا عظــة     بل صورتي صورتها بيدي
حالات نفس في مسربهــا     او في كـــآبتهـــا ولم ازد

اخالني ارى بعينيه ولا ارى ، فالجمال مواقيت ومعادلات ، فلا كل عين بصرت رأت ولا كل اذن سمعت وعت :

في كل الفنية كمــــاب     رويهــا الحب والجمــال

لي الله ، كلما اردته كنز حتى لا يسعه خيالي ، اتداوله على شعر فهو بعيد المدى رقة وشفافية وتبسطا ، وعلى النثر فله هواية الموسوس ، ينقر الحرف كصاحب الكمان ، حتى اذا تأنسته الالحان وسلست ونعمت ، تنعم هو على كلمة فابداعه كما ترجمته خلق وتوليد .

اقرا في الترجمة «الامير الصغير» فلا افرق بينها وبين «كليلة ودمنة» من حيث اقتراب الترجمة من الاصل ولا ايضا سهلها الممتنع وفي غير موضع منها يخال ان الاصل جاء ترجمة ، فالسبك عربي بليغ والاسترسال فيه البيان خلقه الاتصال بين الفصاحة والبلاغة ، فلا ايجاز مخل ولا تطويل ممل ، بل اصابة في الكبد ، كانما اتخطف المنطق وارتاح على كلمة فالحيرة في ايها ابعد امتدادا للتكامل الجمالي ، وعلى هذا المستوى الرائع ، اصيب يوسف غصوب بالحيرة بينه وبين نفسه ، تارة يعتلي على ممنعات النثر حتى به هوس ان يسرع الى استدراك دروبه فلا تفوته المنعطفات ، وطورا هو سمر مع الشعر حتى يتهاوى النجم ويبقى هو على ندمان منهم زهر وطيب . واقتماطماثر ومقامات محاسن ...

لحن كما انجدل القوام     وحــن للنجــوى وتر

يتقادم الجمال فيملس ومعه الخيال ، يوسف غصوب من هؤلاء المولدين الذين شط بهم الارهاف وانصقلوا وملسوا ، فالبوح له عليهم اثار وانطباعات ، لتلين اللفظة وينعم الحرف كما يتهدهد النور في خيلائه انهمارا على الفواغي :

تغفو على حرى وسادتهـا     في ضجعة طاهرة كسلى
معمورة بالحلم باسمــة     لرؤى تكــاد بوجهها تتلى
ومن الاشعة في غدائرهــا     نغم على قسماتها استولى
في كل عاطفة تخالجهـــا     عبــق يفوح وروعة تجلى
وهــم غشا ام آية عرضت     راد الضحى من عالم اعلى
اخشى تلاشيها فعالمهـــا     من هــذه الدنيــا بها اولى
يحنـو عليها القلب مرتقبا     في ناظريهــا الرعشة الاولى

بقاء يوسف غصوب بعيدا عن النقاد ، يذكرني بقول محق ان على الناقد ان يوازي الفنان او على الاقل ان يقترب من الاخذ باعماله ، الا يجوز ان يكون هذا الامر سببا لابتعاد النقاد عن انتاج يوسف غصوب ؟

في شعره ، في نثره ، في حياته الاجتماعية ، في صلاته المتعاطفة بين نفسه وبين مقاهريه كان له مسحات منها ما يملو القمم في لبنان والضحى توريد خدود واستنارات تضيء ولا تحرق . هذا فنان تربى فانتشى وعاهد على شباب ، ان الجمال حفر ونقش واندماج بين نفس ونفس وعين وعين ، فالنزل على يديه توليد جمال ، يتحدث عن الجسد فارتفاع بالحواس الى مخابىء الحدس بالمنقى من الظنون ، لكانما تتعاصر كلها للبلوغ استجماما من المناخات لزهد المفاتن ، حتى اذا ارتاح الوجد الى الضنى يثور الهم المكتوم في حنايا الشاعر ، مما انتظم من انصقال هاج على مرمر وفجوات يزدحم فيها اللمس بما بعده وتجن الصبابات وتعلو مدارات التجمل :

على الرمال الحمر اضجعته     قبلة الــوان والــواد
يتيــه منه ناظري في رؤى     بيض بافق الحلم ، ابكار
يا مهرجان الحسن في مفعم     بفي لطيف الوشي عطــار
اشقت ذكي المسك اعرافــه     من حسد والنسم الساري
تلقاه والاحداق يفريشــه     مستهزئـا بالناظر القـاري

وينصهر كليا في لبنان ، وقد فتح له الانسراب الى اسراره الجمالية ، من اعالي القمم الى شواطئها ، من جفنة الوزال والفجر عليها ندى ولا القوارير المضجة على اختامها ، الى الشيح المتحابب مع الغار تآخيا مع مقاماته اطلاعا للحرير في مواسم لا اخصب ولا اروع عطاء . من الشفق وقد تجرح النهار عليه ضياء ، فيه قلوب تعصر وفيه مهج ، وفيه ما في قلوب الغزلان ، متى الليل لهث عليه ابخرته ، فهو المسك :

ولن تفق الانام وانت منها     فان المسك بعض دم الغزال

من الصافي المترقرق في غياض القاها الخالق بين مفاتن كما العقود ، فيها سحر يجنيها حقارة التصنع والصناعة ، الى صناعات اخذ بها يوسف غصوب لا لشيء سوى تعريف اصحابها بانها ليست فتحا كما زعم اصحابها لا يأتيه سواهم ، تأكدا منه ان الغرور لا يداوي الا بتبطنه حتى يؤخذ اصحابه بالارتياح الى متبطنه ، علهم يفيقون من ذهولهم .

تقرأ يوسف غصوب ، فانت تقرأ نفسك ، سيان اكنت ناثرا او شاعرا ، حتى الذين مضوا على الريشة والزميل لهم معه صبابات ، فشعره لوحات فنية ، اخالني وانا عليه آخذ باللمس ما يؤخذ على سماع ، فالحلاوات على كل حرف ، ومع كل قافية مناهل للارتواء كما للتعلل ، انما وانت على هذه السهولة المغرية ، وفيك غير زهو انك متنعم على ابراجه العاجية اذا عليك من سحره احجية تحول بينك وبين الجذر من تلك الابراج التي حمك دهاؤها الفني فخيل اليك انك على اسرارها بينما العريقون بالجمال لم يحظوا باكثر من النقر على ابوابها .

# الصبا

●

رفيق الصبا اين عهدك اين … تركت على كبدي حرقتين
توليت ؟ .. ما ابعد الماء عني … وما ذكرياتي سوى غصتين
سحبت الطيوز التي رنمت … اغاني حبي على الضفتين
ذكرتك يا لحظات صباي … ولم يبق مني سوى لحظتين
مضت همسات الربيع الذي.. … تسلل يوما الى الرئتين
وكان يرصع لي عالمي … ويوزع في مرقدي نجمتين
يحدثني جاهدا انني … ساصعد حتما الى النيرين
وكم عاهدتني زهور الربى … على الخلد والحلم نسمتين
وكم قد ظفرت اكاليل غار … لراسي من باقة الروضتين
وها انني اليوم احمل من … سعير تحولها جمرتين
امد الى الغد كفا فلا … ارى الياسمين على الراحتين
يصاحبني ( خافق ) ذابل … ويغرقني الياس في لجتين
هو الياس ان حكمت جنده … اباح الصدور وغل اليدين
فما لي وقد اقفرت ربوتي … سوى نغم يحرق الشفتين
سواء لدي احل الربيع … او انطلق الرعد من جهتين

الناظور ــ المغرب

القمري الحسين



امر يوسف غصوب ، انه فنان ، واحلى ما في الفن التناقض لدا من يقراه ، يخال اليه انه على نحات مرهق فيما هو عليه من عمل ، وقد يجده بعضهم مجهدا يوصل نهاره بليله ، فهو ابدا عامل مسهد ، بينما الحقيقة انه، كما العلماء في العصور الانيقة ، تعاطى الجمال على هواية، على وله ، على وجد، على عشق ، فجاءت اعماله كما تتلقى الاوداء انسراح شبابه راع للدعاء على لهثه مسار ، وللابتهال معالم ، وهو الى ذلك مفرط بالتدقيق مرهق للحرف جائر على اللفظة ، فالكلمة متى لها الحياة على يديه صح فيها القول : كانك في جفن الردى وهو نائم...

من هنا ابتدا اختلاف حول انتاجه، ولا غرو فالروائع لا يقر عليها راي فمن ميزاتها انها لا تدرك لها قرار ، ولا يستطاع اشتمالها ، اليست هي ابعاد تلفها ابعاد ، كلما اجتزت .ليا افقا انداحت عن آفاق ، وهل كانت روائع لولا هذه الميزات ؟ شعر يوسف غصوب شاهد عدل ومميز لهذه المتناقضات الفنية ، يسلس فنجاوى وصبا ، ولما انت على هذا الوجد الناغم الناعم لكانما الدبيب عليك نسائم حق فيها القول :

الوقع من الـدامكم نغـم … وغبارهـا طيب الصبا ناسم

يقسو في لينه ، فثقب اللؤلؤ ايسر كدا من التلمظ بالحلاوى من قواريره .

عيناك يا عذراء المنيـة … خضراوي وجه الضحى الاشقر
على حدود الوهم الفالهـا … وفي تجلي الخاطر النير
ما ابعد الاعماق في نظرة … تالهـة في حبهـا المضمر

وفى لنفسه فعاش معها ، كما النفح مع قافيته ، وتنكر له اناسه فوفى لهم وعاش على وفائه ، انه هكذا مع نثره وشعره :

من لـذة انت ومن ملهم … منـزل من عالم مبـهم
ورد وجسم في ازدهار الصبى … تروى بها نفسي ويروى دمي

فوزي سابا

عندما التقيتك ، يا صديقتي العزيزة ، في ذلك اليوم الشديد الحر في بيروت ، لم اكن اتصور ان تكون لنهاري الشاق تلك النهاية السعيدة. ولم اكن ادري ان تلك المصادفة ستكون مثقلة بالنتائج البعيدة الاثر في حياتي .

كنت مضطرا ، برغم شدة الحر ، الى مراجعة بعض الكتب ، فامضيت عدة ساعات في دار الكتب الوطنية اقلب مئات الصفحات بسرعة هائلة لان ما كنت اريده لم يتجاوز صفحة واحدة من كتاب ،ولاني كنت مصمما على عدم الرجوع مرة اخرى الى دار الكتب من اجل الموضوع ذاته . فعلى شدة شغفي بالمطالعة لم اكن مستعدا لتحمل جو بيروت الثقيل في اواخر تموز اللاهب ، اكثر من بضع ساعات اعود بعدها مسرعا الى بيتي الصغير الحنون القابع فوق احدى قمم المتن الرائعة . ولم يطل بي الزمن حتى اهتديت الى النص الذي اريد بفضل اعتيادي التنقيب ، وبدلالة حاسة عجيبة مجهولة تقودنا الى غايتنا بسرعة واحكام ونحن نكاد لا نعي ما نفعل . ونقلت النص حرفيا في دفتر المذكرات الصغير الذي لا يفارقني، واعدت الدفتر الى جيبي ، وتركت الكتاب على الطاولة واتجهت نحو الباب قاصدا الخروج . وفي تلك اللحظة فقط اجلت الطرف في مختلف انحاء قاعة المطالعة فلم ار فيها الا ثلاثة او اربعة من المطالعين : ورايتك انت وقدوقفت تريدين الخروج مثلي وكان لا بد ان نصل الى الباب معا، وان نخرج معا . ولم يهتم احدنا بالاخر ، ولم ينظر احدنا الى الاخر اكثر من النظرة السطحية العابرة التي يلقيها احد المارة على من يسير بمحاذاته في الشارع، دون اي هدف او تركيز .

واسرعت الى ساحة الشهداء ، وصعدت الى المقعد الخلفي الايمن من اول سيارة تتاهب للصعود الى الجبل . وبعد وصولي بقليل ، صعد راكب شاب واحتل المقعد الخلفي الايسر وبقي في السيارة مكان لراكب واحد هو المكان الخلفي الاوسط . ولم تمض دقيقة او دقيقتان حتى فوجئت بك تفتحين باب السيارة لتركبي . فتركت لك المقعد الايمن وجلست بالاوسط ، وتحركت السيارة بين عشرات السيارات — لتاخذ طريقها الى الجبل . ولم يكن احد من ركاب السيارة يتفوه بكلمة — لان احدا منهم لم يكن يعرف الاخرين.

ولاحظت عليك علامات الانقباض تتزايد كلما تقدمنا في الطريق . وعند احد المنعطفات تراءى لي انك غطيت عينيك بكفيك وصعدت تنهيدة عميقة طويلة . فظننت ان من واجبي ان



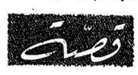

بقلم سعيد ابو الحسن



اسألك :

— « هل انت منزعجة يا انسة ، هل تريدين ان تقف السيارة لتستريحي بعض الوقت ؟ »

وكان سؤالي في محله لانك اجبت بايجاب . فطلبت الى السائق ان يقف بضع دقائق — ففعل — ونزلت انت من السيارة وتمشيت قليلا في الهواء الطلق ، ثم عدت الى مكانك واستانفنا المسير . وكانت هذه الحادثة مناسبة للتعارف . فتعارفنا : انت وانا من حملة المتاعب في الدنيا .من هذه الفئة التي لا تفهم الراحة والسعادة كما




يفهمها الاخرون . لغيرنا ان يكتفي من الحياة بالثروة ورغد العيش والتمتع بمباهج الحياة المادية المختلفة . اما نحن فنشعر بأن سعادتنا وراحتنا لا تتحققان الا اذا انتجنا شيئا من ادب او علم ، اذا اضفنا شيئا ولو يسيرا الى تراث امتنا الحضاري ، مهما يكلفنا ذلك من ثمن اقله العرق ، والارق ، والتعب الشديد الدائم .

عرفت انك من طرابلس ، وانك تدرسين الطب في الجامعة الاميركية، وانك تصطافين مع ذويك في قرنايل، وانك كنت في دار الكتب الوطنية تراجعين مجموعة من الكتب والمجلات تمهيدا لكتابة الناحية التاريخية من رسالة كنت تجمعين موادها الاولية. وعرفت عني اني موظف في وزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة . وانني اصطاف بالقرب من قرنايل ايضا — وانني اجمع المواد الاولية لكتاب تاريخي ،وانني من اجل هذا كنت في دارالكتبالوطنية مثلك.

عرفت عنك. وعرفت عني .ولكني فاجاتك بسؤال عن سبب انقباضك بين الحازمية وعاليه . فعاد اليك تجهمك وقلت لي : « ان لذلك قصة» فقلت : « وهل تتفضلين علي بهذه القصة ؟ » قلت : « بكل سرور . ولكني افضل ان اقصها عليك ، في جلسة هادئة ، لا في سيارة تلهف المنعطفات بهذه السرعة الجنونية . واكون مسرورة لو زرتنا صباح الاحد القادم وسمعت حكايتي ونحن نشرب فنجانا من القهوة .

— انني اقبل الدعوة واشكر لك هذه المبادرة .

— نحن في بيت فلان ، تحت الشارع الرئيسي مباشرة . معي في البيت ابي وامي واخي الصغير احسان .

بعد ما قلت ذلك استانفت السيارة صعودها والتفافاتها . وكان صوت نور الهدى ونجاح سلام ووديع الصافي وفيروز ينساب من الراديو فيصعد الى الفضاء ، وينعطف مع

السفوح ، ويعمق كالاودية ، يقوى كالصخور ، ويرق حتى يحاكي النسيم العليل ، واذا نحن نجد انفسنا في جو ساحر ، واذا نحن نفهم الاغنية اللبنانية على حقيقتها ، نفهمها على الطبيعة ، كما هي ، نفهم معنى العتابا ، والليالي ، والموال ، والقصيد والشروقي ، وموسيقى الاخوين رحباني ، وصوت فيروز ، واصوات وديع ونور الهدى ونجاح العميقة المعبرة .

ووصلت السيارة الى قرنايل ، فنزلت مودعة ، وتابعت طريقي الى منزلي وكاني منذ تلك الدقيقة اعيش في يوم الاحد الموعود .

كنت في تمام الساعة التاسعة على باب بيتكم ـ فاستقبلتني هاشة مرحبة ، كما لو كانت صداقتنا تعود الى سنين . وقدمتني الى والديك واخيك الصغير ، وتبادلنا عبارات المجاملة المعهودة . ثم استأذنت اهلك في ان نجلس على الشرفة لنشرب القهوة ونتحدث في موضوع الجامعة والاطروحة العتيدة ، وما الى ذلك .

وخرجنا الى الشرفة الغربية ، واذا انا امام منظر رائع لا تقع العين على اجمل منه : قمم ، وسفوح ، واودية ، لا يعرف اولها من اخرها ، تكسوها اشجار الصنوبر الشامخة باعتزاز وانفة ، واشجار السنديان المنطلقة بقوة وعنفوان ، والكروم وجنائن التفاح والكرز والدراق ، فضلا عن النباتات الطبيعية التي تغطي الارض كلها ببساط جمع كل ما في سلم اللون الاخضر من درجات . وكان النسيم الصاعد من الساحل ، خلال هذه الاودية ، يصل الينا بردا منعشا مثقلا بالعطور .

وبعد ان رشفت من فنجانك رشفتين بدات الحديث وانت تنظرين الى المجهول . قلت :

ـ « انك ولا شك ، تتساءل لماذا انا ادرس الطب ، وما هي الرسالة التي اعدها ، وما هي المعلومات التي كنت اسعى الى جمعها في دار الكتب الوطنية . وما هو سبب انقباضي بين الحازمية وعالية ؟ ولعلك لاتدري ان الجواب على كل هذه الاسئلة واحد ، متصل الحلقات ـ فانا ادرس الطب رغبة مني في التخصص بالامراض العقلية ، والذي يدفعني الى ذلك انني اعتقد ان اكثر من نصف الناس الذين نعتبرهم عقلاء ، هم بالحقيقة مجانين ، وان الجنون هو التفسير الصحيح لكل ما نطلق عليه اسم «العقد» او «مركبات



سعيد ابو الحسن

★

النقص» وان مظاهر العنف والوحشية التي نجدها عند الكثيرين من الناس ليست الا من افانين الجنون . ما دام كل ذلك يعود الى سبب رئيسي واحد هو فقدان القوة العاقلة في الانسان سيطرتها على الغرائز والنزعات والنزوات والرغبات . وان اي انسان مهما تكن درجة علمه ، ومهما تكن ظروف حياته الاجتماعية لا يخلو من طاقة جنون كامنة ، تتجسد وتظهر للعيان عندما تتوافر لها شروط بيئية معينة ، اي عندما يواجه الانسان تجربة الصراع العنيف العميق بين عقله وعاطفته ، بين واجبه ومصلحته ، بين روحه وجسده ، بين انسانيته الباقية ورغباته الانية الزائلة ، بين لذة مجردة سامية لا تستطيع الاكثرية الساحقة من الادميين فهمها والتمتع بها ، ولذة محسوسة لها كم وكيف ، وزمان ومكان ، ولها موضوع ومحل ، وهي في متناول الغالبية الكبرى من البشر . وان اشد المجانين خطرا ليسوا بين المقيمين في مستشفيات الامراض العقلية ، بل هم بين الذين نحيا بينهم ونتعامل معهم ، وبين الطبقة العليا المسيطرة في العالم ، بين المسؤولين عن مصير العالم بالذات . اذ كيف يمكن ان تعتقد انت ، او اعتقد انا ، او يعتقد غيرنا من الناس ، ان الذي يأمر بالقاء قنبلة ذرية او هيدروجينية على المدن الماهولة بالملايين من الناس ، ليقضي عليهم دفعة واحدة ، هو من العقلاء ؟ وكيف نصدق ان مديري الشركات الاحتكارية الكبرى ، الذين يفضلون ان يحل بالدنيا كلها الدمار على ان تكسد تجارتهم او تخسر شركاتهم ، لديهم ذرة من العقل ؟ وكيف يقبل منطقنا السليم بان يحسب في اصحاب العقول هؤلاء المستعمرون الذين تزخر اداب امهم بتقديس الحرية وتمجيد الاحرار ، وتخليد فكرة الاستشهاد في سبيل الوطن ، بينما هم يبيدون الملايين من الانفس البريئة في سبيل القضاء على كل حركة تحررية في البلاد التي يستعمرونها ؟

من هنا ، من هذه الحقائق بالذات استوحيت موضوع رسالتي وساضعها تحت العنوان الاتي : « الجنون مرض القرن العشرين » ـ وهذا لا يعني ان القرون الماضية كانت سليمة من هذا المرض ، الا ان عصرنا الحاضر تفوق عليها جميعا من حيث انتشار المرض ، وتنوعه ، وصعوبة

## الليل والقمر والحب

عجبت لليل اضفى من غلائله ... على حبيبين راما غفوة الناس
حتى اذا اوغلا فيه .. ولفهما ... صمت . جناحاه من عمق واحساس
واغمض الورد ـ نشوانا ـ كمائمه ... على خيالين هزا خافق الآس
اوما الى البدر فانسابت اشعته ... بين الغمائم في طهر وايناس
تلف انفس تمثالين : في القِ ... من الضياء ..على ارض ،من الماس

الاسكندرية ... عبد العليم القباني

تشخيصه . فهو يختفي ، تحت مظاهر من الصحة العقلية ، تتحدى ابرع الاطباء واحدث الات الكشف والاستقصاء . وهو كثير التحاليل، ارستقراطي المظهر ، سريع التحول.

واما الانقباض الذي رايته على وجهي بين الحازمية وعالية ، والذي كان سببا في تعارفنا ، وفي تبادلنا هذا الحديث ، فهو يمت بصلة قوية الى موضوع دراستي ورسالتي»

وبعد استراحة قصيرة ، وتنهيدة عميقة ـ وكانك تستريحين على قمة جبل تسلقته بمشقة ، تابعت حديثك :

ـ لقد كنت مرة ، قبل ان انهي دراستي الثانوية ، نازلة بالسيارة من قرنايل الى بيروت، مع رفيقة لي، لرؤية احد الافلام السينمائية المشهورة . وقد ركبنا الى جانب السائق بينما احتل المقاعد الخلفية ثلاثة رجال نزلوا في مزرعة تحت عاليه، وتابعت السيارة طريقها بنا وحدنا حتى وصلنا امام مبنى العصفورية اذ استوقفنا ثلاثة ركاب ، رجلان وامراة ، كانوا ينتظرون احدى السيارات لينزلوا الى بيروت . وما ان ركبوا واستانفت العربة سيرها، حتى سال احد الرجلين رفيقه باللغة الفرنسية :

ـ ارجو ان تكون اوراقنا مستكملة شروطها ؟

فاجاب الاخر :

ـ كل شيء على ما يرام ، ولدي صور مصدقة من جميع الوثائق ، من البيانات الطبية حتى قبول « المريضة » في المصح .

ـ اذن لم يبق علينا سوى مقابلة المحامي اليوم لمباشرة المعاملات القانونية غدا .

وكان لهذه الكلمات القليلة الغامضة وقع الصاعقة على نفسي . لم يكن قد مضى علي زمن طويل، منذ ان اطلعت على قصة مي زيادة ، لمناسبة دراسة مؤلفاتها واثرها في النهضة الادبية الحديثة ـ وكنت قد تابعت كل ما نشر عنها في المجلات ولا سيما في مجلة المكشوف التي تبنت قضيتها ، وتابعتها حتى اعيدت اليها حريتها ـ رحمها الله !

ان ما سمعت من حديث في السيارة ليس الا قصة لماساة جديدة يقترفها مجرمون عريقون يسعون الى المال عن اية طريق ، ولو اقتضى الامر ان يدفنوا الناس احياء، في مستشفى للامراض العقلية ، بحجة الجنون، او في سجن مظلم ، بتلفيق جناية، او في مقبرة ، بسبب الموت ظلما، قبل الاوان . ـ وتذكرت كيف ان مي المكافحة بقلمها ، مي ذات العواطف المتاججة والقلب الكبير ، والفكر المشرق ، مي التي كانت زينة المجتمع الراقي ، وعروس الاندية الادبية، سيقت ذات يوم الى العصفورية، وسلبت حريتها ، وحرمت من تنفس الهواء الطلق ، بينما الف الف من الاجلاف ، غلاظ القلوب، يسرحون ويمرحون ، يسرقون ويزورون ، يتلذذون ويتعهرون، بلا قيد ولا رقيب .

وماساة اخرى تتكرر ، واشهد انا فصولها . وقد تكون ضحيتها امراة مثل مي ، وقد يكون جلادوها من فصيلة جلادي مي . فهل يجوز السكوت على هذا ؟ واتخذت قراري بسرعة : بعد حصولي على البكالوريا سادرس الطب ، وساتخصص بالامراض العقلية ، وسابحث عن المجانين الحقيقيين في المجتمع، فاساهم في معالجتهم ، انقاذا لضحايا دعوى الجنون ، ووفاء لذكرى مي وامثالها ممن عذبوا وامتهنت انسانيتهم الفذة، ظلما وافتئاتا ـ وصدقني ان عددا كبيرا من رجال المجتمع البارزين سيكونون في عداد المرضى الذين يشملهم اختصاصي..

كنت اصغي اليك في كثير من الاهتمام والمشاركة . وما ان وصلت الى هذه النقطة من حديثك حتى كنت استعرض بمخيلتي نماذج ونماذج من المجانين الحقيقيين الذين يعيشون بيننا . وودعتك شاكرا مشجعا بعد ان وعدتك بحضور حفلة توزيع الشهادات في الجامعة، وبقراءة رسالتك ، وبالكفاح معك، في مجال اختصاصي ، للقضاء على وباء الجنون مهما تختلف صوره وانواعه ، والدفاع عن الضحايا الابرياء ايا كانوا ... تعاهدنا على ان نعطي لحياتنا معنى الدفاع عن البؤساء والمظلومين ، ضد المجرمين الكبار ، ضد المجانين المتنفذين ، وبعض النظم الاجتماعية التي تتيح لهم ان يعيشوا، ويمارسوا اجرامهم، وسط حياة الصخب والتعهر والمجون ...

دمشق ... سعيد ابوالحسن